تدبر وفهم كَلَامِ رَبِّي

العنكبوت والروم ولقمان والسجدة

د. جمعة بن خادم بن سلم العلوي

سلطنة عمان

19 محرم 1448 الموافق 4 يوليو 2026

بسم الله الرحمن الرحيم

الموضوع ....".. . ...**الصفحة**.

سور العنكبوت..... 4

سورة الروم 35

سورة لقمان.. 66

سورة الم السجدة. 94

المراجع 104

سورة العنكبوت

تسمية السورة

(سورة العنكبوت**)** وهو الاسم الذي اشتهرت به في المصاحف الشريفة وكتب التفسير، سميت به نسبةً إلى الآية التي ضُرب فيها المثل ببيت العنكبوت لبيان ضعف آلهة المشركين.

وقد عُرفت أيضاً باسم آخر، وهو: سورة (الم أَحَسِبَ النَّاسُ): وهو الاسم الاستهلالي لها، حيث يُطلق عليها في بعض كتب التفسير وعلوم القرآن أوائل كلماتها كما هو الحال مع سور أخرى.

وهي مكية في قول جمهور العلماء، وقيل إنها مكية إلا أول إحدى عشرة آية منها فهي مدنية، وقيل هي مكية إلا عشر آيات من أولها، أو أنها نزلت بين مكة والمدينة.

أما عن عد آياتها، فهي 69 آية في جميع المدارس العددية (كالكوفي والمدني والمكي)، باستثناء أهل حمص (الشام) الذين عدّوها 70 آية.

سبب نزول السورة

قال الواحدي في أسباب النزول: قال الشعبي نزلت في أناس كانوا بمكة قد أقروا بالإسلام ، فكتب إليهم أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - من المدينة :أنه لا يقبل منكم إقرار ولا إسلام حتى تهاجروا ، فخرجوا عامدين إلى المدينة ، فاتبعهم المشركون ، فآذوهم . فنزلت فيهم هذه الآية . وكتبوا إليهم : أن قد نزلت فيكم آية كذا وكذا ، فقالوا : نخرج ، فإن اتبعنا أحد قاتلناه ، فخرجوا فاتبعهم المشركون ، فقاتلوهم ، فمنهم من قتل ، ومنهم من نجا ، فأنزل الله تعالى فيهم : (ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا) الآية .

وقال مقاتل: نزلت في مهجع مولى عمر بن الخطاب، كان أول قتيل من المسلمين يوم بدر ، رماه عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله ، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - [يومئذ] " : سيد الشهداء مهجع ، وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة " ، فجزع عليه أبواه وامرأته ، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية ، وأخبر أنه لا بد لهم من البلاء والمشقة في ذات الله تعالى[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

---

1 - انظر موقع إسلام ويب، وأسباب النزول للواحدي (666، 667).

(الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (3) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (4) مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (5) وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ(6) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (7) وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۚ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (8) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (9) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (10) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (11) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (12) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ(13))

هذه الآيات هي الدرس الأول من سورة العنكبوت وهي "دستور الابتلاء والتمحيص" في القرآن الكريم.

*(الٓم): يرى شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله - ومن وافقه أن الحروف المقطعة ليس لها معنى مفرد في ذاتها (كحروف)، بل هي أسماء للسور، وجيء بها في أوائل السور لبيان إعجاز القرآن الكريم، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله مع كونه مركباً من نفس هذه الحروف التي يتخاطبون بها [1].

السورة مكية، كما سبق، نزلت والمسلمون في مكة يواجهون أشد أنواع الأذى والاضطهاد، بدأت السورة بالحروف المقطعة لإثارة الانتباه، وتحدي المشركين بـ "جنس" الحروف التي يركبون منها كلامهم.

الإشراقة البلاغية: يذكر البقاعي – رحمه الله - في (نظم الدرر) أن الحروف المقطعة هنا جاءت لتمهد لموضوع السورة؛ فالإعجاز في تركيب الحروف يشبه "الإعجاز والتمحيص" في تركيب وتشكيل الجماعة المؤمنة عبر الابتلاء. وكأن الحروف المفرقة تلتحم لتصنع كلاماً معجزاً، وكذلك المؤمنون الأفراد تلتحم عقيدتهم عبر المحن لتصنع أمة قوية.

ا *(أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ): (أَحَسِبَ): الهمزة لإنكار الحسبان والنفي الإبطالي، و"حسب" يتعدى لمفعولين، وسدّ مسدّهما المصدر المؤول من (أَن يُتْرَكُوا).

1 - انظر تفسير ابن كثير سورة البقرة، وأضواء البيان.

(أَن يَقُولُوا): مصدر مؤول في محل خفض بنزع الخافض (أي: لأن يقولوا، أو لعلة قولهم).

(وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ): الجملة الاسمية في محل نصب حال، وصيغة المضارع (يُفْتَنُونَ) تفيد التجدد والاستمرار، والجهل بفاعل الفتنة (بناء الفعل لما لم يسم فاعله) يشير إلى أن الفتنة سنة جارية لا مفر منها ، فمن وقعت عليه فيه قدر أقدار الله سبحانه، فيصبر وليحتسب.

يروى عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يودُّ أَهْلُ العافِيةِ يومَ القيامةِ حينَ يُعطَى أَهْلُ البلاءِ الثَّوابَ لَو أنَّ جلودَهُم كانَت قُرِضَت في الدُّنيا بالمقاريضِ [1].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله قال: دخلتُ علَى النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ وَهوَ يوعَكُ فوضعتُ يدي عليهِ فوجدتُ حرَّهُ بينَ يديَّ فوقَ اللِّحافِ فقلتُ يا رسولَ اللَّهِ ما أشدَّها عليكَ قالَ إنَّا كذلِكَ يضعَّفُ لَنا البلاءُ ويضعَّفُ لَنا الأجْرُ قلتُ يا رسولَ اللَّهِ أيُّ النَّاسِ أشدُّ بلاءً قالَ الأنبياءُ قلتُ يا رسولَ اللَّهِ ثُمَّ مَن قالَ ثُمَّ الصَّالِحونَ إن كانَ أحدُهُم ليُبتَلى بالفَقرِ حتَّى ما يجدُ أحدُهُم إلَّا العَباءةَ يَحويها وإن كانَ أحدُهُم ليفرَحُ بالبلاءِ كما يفرَحُ أحدُكُم بالرَّخاءِ[2].

وكان صلى الله عليه وسلم يمر على آل ياسر وهو يعذبون فيقول: صبرًا آل ياسرٍ، فإنَّ موعدَكم الجنةُ [3]..

وعن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: أتَيتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو مُتوسِّدٌ بُردةً، وهو في ظِلِّ الكَعبةِ، وقد لَقينا مِنَ المُشرِكينَ شِدَّةً، فقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، ألا تَدعو اللهَ، فقَعَدَ وهو مُحمَرٌّ وجهُه، فقال: لقد كان مَن قَبلَكُم لَيُمشَطُ بمِشاطِ الحَديدِ، ما دونَ عِظامِه مِن لَحمٍ أو عَصَبٍ، ما يَصرِفُه ذلك عن دينِه، ويوضَعُ المِنشارُ على مَفرِقِ رَأسِه، فيُشَقُّ باثنَينِ ما يَصرِفُه ذلك عن دينِه، ولَيُتِمَّنَّ اللهُ هذا الأمرَ حتَّى يَسيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنعاءَ إلى حَضرَمَوتَ، ما يَخافُ إلَّا اللهَ -زادَ بَيانٌ:- والذِّئبَ على غَنَمِه. [4].

---

1 - أخرجه الترمذي (2402) واللفظ له، وابن أبي الدنيا في ((المرض والكفارات)) (202)، والطبراني في ((المعجم الصغير))(241) ، وقال الترمذي: غريب لا نعرفه بهذا الإسناد إلا من هذا الوجه

2 - أخرجه ابن ماجه (4024) واللفظ له، وصحح الألباني إسناده، والطبري في ((مسند ابن عباس))(421)

3 - أخرجه الطبراني في ((المعجم الأوسط)) (1508)، والحاكم (5666)، وأبو نعيم في ((معرفة الصحابة)) (6664) باختلاف يسير، في مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنه، وقال الألباني عن إسناده: حسن صحيح.

4 - أخرجه البخاري (3852) من أفراد البخاري على مسلم.

يقول ابن عاشور – رحمه الله - في (التحرير والتنوير): "الاستفهام إنكاري، تنبيهاً على خطأ عظيم في ظنهم أن الإيمان مجرد كلمة تقال باللسان دون تمحيص للحقائق المستقرة في القلوب".

وفي ظلال هذه الآية، يكتب سيد قطب – رحمه الله -: "الإيمان ليس كلمة تقال، إنما هو حقيقة ذات تكاليف، وأمانة ذات أعباء، وجهاد يحتاج إلى صبر... فلا بد من بلاء يختبر الطاقة، ويمحص القلوب".

*(وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ): (وَلَقَدْ): اللام موطئة للقسم، و"قد" للتحقيق؛ تأكيداً على أنّ الابتلاء قانون تاريخي وسنّة إلهية مضت في الأمم السابقة.

(فَلَيَعْلَمَنَّ): اللام واقعة في جواب القسم، والفعل مؤكد بنون التوكيد الثقيلة. الإشراقة البلاغية وسر "العلم": هنا يثور تساؤل عقدي: الله يعلم الأشياء قبل حدوثها، فما معنى (فَلَيَعْلَمَنَّ)؟ يوضح ابن تيمية وتلميذه ابن القيم – رحمهما الله - أنّ العلم هنا هو "علم الظهور والشهود" الذي يترتب عليه الثواب والعقاب (أي علم وقوع الشيء موجوداً مشهوداً بعد أن كان معلوماً أنه سيقع).

المقصد التفسيري: المراد تسلية المؤمنين في مكة؛ ليعلموا أنهم ليسوا بدعاً من الرسل والمسلمين، فالطريق معبد بالدموع والعرق والدماء منذ القدم، كما أنّ المقابلة البلاغية بين (صَدَقُوا) التي جاءت فعلاً ماضياً لثبوت الصدق و بين (الْكَاذِبِينَ) التي جاءت اسماً وفي صيغة دالة على التمكن من الوصف، عجيبة في الدلالة على رسوخ الصادقين وافتضاح الكاذبين.

*(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) السياق والمقصد: بعد أن التفتت الآيات لتثبيت المؤمنين، التفتت هنا لتهديد الظالمين والمفتِنين.

الإشراقة البلاغية: أَمْ: هي "أم" المنقطعة التي تفيد الإضراب الانتقالي مع معنى الاستفهام الإنكاري.

(أَن يَسْبِقُونَا): يسميها البلاغيون: استعارة مكنية بديعة، فالسبق في أصله للمضمار والهروب، والمعنى: أيظن هؤلاء الكفار أنّهم بفعلهم السيئات وإيذائهم للمؤمنين سيفوتون الله ويعجزونه ويفلتون من عقابه؟

(سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ): "ساء" فعل لإنشاء الذم، و"ما" إما موصولة أو نكرة موصوفة، وهو حكم بالجهل التام والضلال في تقدير الأمور.

*(مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ): (مَن كَانَ): "من" شرطية، وجملة (فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ) هي جواب الشرط واقترنت بالفاء لأنها جملة اسمية مؤكدة بـ "إنّ" واللام المزحلقة.

(يَرْجُو): الرجاء هنا يحمل معنيين بديعين عند البلاغيين: إما الأمل وحب اللقاء (للمؤمن المشتاق)، أو الخوف والخشية (من الحساب).

يذكر ابن القيم – رحمه الله - في كتاباته عن الشوق والرجاء، أن هذه الآية هي بمثابة "عزاء وتثبيت وموعد" للمبتلين، يقول الله لكل مؤمن مكروب: إنّ كان تصبرك على الأذى بدافع شوقك ومحبتك للقائي، فابشر فإن الموعد قريب جداً، لأن كل "آتٍ" قريب.

وأَمّا التعقيب وتذييل الآية بهذين الاسمين من أسمائه سبحانه (وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} فهو سبحانه سامع لأقوالهم ومناجاتهم وتضرعاتهم الشاكية والدالة على الإيمان، وعليم بما تنطوي عليه ضمائرهم من الصبر والاحتساب.

*(وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) الإشراقة البلاغية:

(جَاهَدَ): حذف مفعول "جاهد" (لم يبيّن سبحانه: جاهد من؟) لإفادة الإطلاق الشامل؛ فهو يشمل جهاد النفس، وجهاد الشياطين، وجهاد الطغاة، وجهاد الصبر على الفتنة.

(فَإِنَّمَا): أداة قصر تفيد الحصر؛ أي أنّ ثمرة الجهد والجهاد والمجاهدة عائدة بالكلية على الإنسان المجاهد نفسه لا على الله.

عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه قال الله: يا عبادي إنَّما هيَ أعمالُكم أحصيها لَكم ثمَّ أوفِّيكم إيَّاها فمن وجدَ خيرًا فليحمدِ اللَّهَ ومن وجدَ غيرَ ذلِكَ فلا يلومنَّ إلَّا نفسَهُ [1].

المقصد العقدي والتربوي: يوضح محمد قطب – رحمه لله - في كتاباته حول التربية الإسلامية أنّ هذه الآية تقطع دابر "المنّ" في نفس العبد، فالإيمان والجهاد وتملّك النفس وسط الأعاصير ليس منّة يمنّ بها العبد على ربه أو على دينه؛ فالله عز وجل غني بذاته عن كل الخلائق (إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)، وإنما الابتلاء لتزكية العبد وتأهيله.

*(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ)

الإشراقة البلاغية: المقابلة البلاغية ظاهرة هنا مع قوله تعالى (الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ)؛ فهناك وعيد بالخسران وهنا وعد بالتكفير والجزاء الأوفى.

لَنُكَفِّرَنَّ / وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ: أفعال مؤكدة بالقسم والنون، تدل على حتمية المكافأة حيث جبر خاطر المؤمنين بعد الفتنة، وعَرّض بالكافرين والمنافقين.

---

1 - أخرجه مسلم (2577) مطولاً.

(أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ): استخدم اسم التفضيل "أحسن" ليدل على كرم الله العظيم، حيث يُحاسبهم على أعلى درجات إحسانهم وتُعمم هذه الرتبة على سائر أعمالهم المقبولة.

*(وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۚ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ).

السياق والمقصد الخاص: هذه الآية تتنزل من قمة "المجاهدة العامة" إلى أدق تفاصيل "المجاهدة الاجتماعية والأسيرية". نزلت بحسب أسباب النزول في الصحابي سعد بن أبي وقاص وأمه حين حلفَت ألا تأكل ولا تشرب حتى يكفر بمحمد.

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: أنَّه نَزَلَت فيه آياتٌ مِنَ القُرآنِ؛ قال: حَلَفَت أُمُّ سَعدٍ أن لا تُكَلِّمَه أبَدًا حتَّى يَكفُرَ بدينِه، ولا تَأكُلَ ولا تَشرَبَ، قالت: زَعَمتَ أنَّ اللَّهَ وصَّاكَ بوالِدَيكَ، وأنا أُمُّكَ، وأنا آمُرُكَ بهذا، قال: مَكَثَت ثَلاثًا حتَّى غُشيَ عليها مِنَ الجَهدِ، فقامَ ابنٌ لَها يُقالُ له: عُمارةُ، فسَقاها، فجَعَلَت تَدعو على سَعدٍ، فأنزَلَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ في القُرآنِ هذه الآيةَ [1].

الإشراقة البلاغية: (حُسْنًا): مفعول مطلق لفعل مضمر تقديره (أن يحسن حسناً).

(وَإِن جَاهَدَاكَ): التعبير بـ "جاهداك" يرينا مدى الضغط النفسي والعاطفي الرهيب الذي يمارسه الأبوان؛ فالأمر لم يكن مجرد اقتراح بل "جهاد" منهما لصده عن دينه.

(فَلَا تُطِعْهُمَا): الحسم الحازم في قضايا العقيدة والتوحيد، مع بقاء التوصية بالمعاملة الحسنة المصاحبة في الدنيا كما فصلت آيات سورة لقمان.

(إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ): تقديم الجار والمجرور يفيد الاختصاص والحصر لتذكير الجميع بأن المردّ والفيصل هو الله وحده، وليس العاطفة العائلية.

*(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ)، سر التكرار وبلاغته:

قد يتساءل المتدبر: لِمَ كُررت جملة (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} بعد آيتين فقط من ذكرها؟

يجيب ابن عاشور والبقاعي – رحمهما الله -: الآية الأولى وُعِدوا فيها بتكفير السيئات والمكافأة على الأعمال، أمّا هنا فالإدخال (فِي الصَّالِحِينَ) يعني منحهم "المقام والمنزلة والبيئة الشريفة"، إنها ترضية نفسية واجتماعية؛ فبما أنهم عصوا والديهم

1 - أخرجه مسلم (1748) مطولاً.

الكافرين وتبرأوا من باطلهم وأصبحوا كأنهم بلا "أهل"، فإن الله يعوضهم بالانتماء الشريف لزمرة الصالحين من الأنبياء والأولياء، وهي أعظم بيئة بديلة وأشرف نسب.

وفي هذا إيماءة بأهمية التكافل بين المسلمين، فكم من طرده أهله أو عاداه قومه بسبب إسلامه، وقد آوى النبي صلى الله عليه وسلم الكثير، في صفة مسجده، حتى سُمّوا: أصحاب الصفة، ولا يزال المسلمون على سنته صلى الله عليه وسلم.

عن عبد الله بن مسعود رضي لله عنه: كنَّا نتحامَلُ فكان الرَّجلُ يجيءُ بالصَّدقةِ فيُقالُ: هذا مُراءٍ ويجيءُ الرَّجلُ بنصفِ الصَّاعِ فيُقالُ: إنَّ اللهَ لغنيٌّ عن هذا فنزَلت هذه الآيةُ: {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ} [التوبة:79] [1].

*(وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ)

الإشراقة البلاغية: تنتقل السورة الآن لتشريح صنف آخر رسب في الامتحان: "المنافقون" أو "ضعاف الإيمان".

(فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ): تشبيه بليغ مقلوب ومختل في ميزان العقل؛ حيث شبّه عذاب المخلوق القابل للزوال (أذى الناس) بعذاب الخالق السرمدي الشديد (عذاب الله)، فهرب من ألم الدنيا المؤقت إلى النفاق الذي يورث عذاب الآخرة الدائم.

(وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ): انظر إلى التناقض العجيب! عند الأذى ينسب الأذى لـ "الناس" ويتملص، وعند الغنيمة والنصر يتلصص ليركب موجة المؤمنين بالقسم المؤكد (لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ) للاستفادة المادية.

(أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ): الاستفهام تقريري توبيخي يعري ما تخفيه السرائر.

*(وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ): الإشراقة البلاغية والتكرار:

هذا تأكيد ثانٍ لعلم الظهور والشهود المذكور في الآية الثالثة، لكنه خُصص هنا للفرز بين المؤمنين الصادقين الثابتين على الأذى، والمنافقين المتقلبين مع المصلحة، كما أنّ تأكيد الأفعال بنون التوكيد الثقيلة واللام يقطع أي أمل للمنافق في إخفاء خبيئته أو مخادعة خالقه.

*(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

1 - أخرجه البخاري (4668)، ومسلم (1018) بنحوه

(وَلْنحْمِلْ): اللام هنا لام الأمر، والفعل مجزوم بها، وصيغة الأمر هنا مستعملة بلاغياً في معاني "الالتزام والضمان"؛ أي: نحن نضمن لكم تحمّل التبعات والذنوب إن وُجدت.

(وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ): جاء الرد الإلهي الصارم لنفي هذا الادعاء الواهي جملة وتفصيلاً:

باستخدام الجملة الاسمية المؤكدة بالباء الزائدة في خبر ما النافية الحجازية {بِحَامِلِينَ}.

كما أنّ تكرار "مِنْ" الاستغراقية (مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ) جاء لنفي أدنى جزء أو مثقال ذرة من الخطايا.

*(وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ)،

الإشراقة البلاغية والمقابلة: بين لآيتين مقابلة بديعة وقانون مالي/عقدي في الأوزار:

هم لن يحملوا خطايا المؤمنين "نيابة عنهم" كما وعدوا ولن يخففوا الحمل عن المؤمنين (نفي في الآية السابقة).

لكنهم سيحملون أوزاراً "مساوية ومماثلة" لأوزار من أضلوهم بسبب الإضلال والصد عن سبيل الله (إثبات في هذه الآية).

أَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ: تنكير "أثقالاً" يفيد التهويل والتكثير، والتعبير بالثقل (الوزن المادي) تجسيد حسي فظيع ومخيف للذنوب والافتراءات الكاذبة التي كانوا يخدعون بها عقول الناس في الدنيا.

الخلاصة: هذا المطلع يصهر البنية النفسية للمؤمن ليتخلص من التطلع إلى النتائج القريبة، ويوطن نفسه على احتمال الأذى كجزء أصيل من ضريبة العقيدة. السورة تبين بوضوح لغوي وبلاغي حاسم أن حسم المعارك والابتلاءات لا يخضع للأهواء الإنسانية ولا للضمانات الشفهية الكافرة، وإنما يخضع لميزان إلهي دقيق يميز الخبيث من الطيب عبر غربال الفتنة والتمحيص.

*(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ(14) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (15) وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (16) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (17) وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (18) أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (19) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ

اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20) يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (21) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (22) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(23) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (24) ۞ (25) فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (26) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ(27))

هذه الآيات الكريمة في هذا الدرس الثاني من سورة العنكبوت هي وحدة موضوعية وسياقية متكاملة؛ تنقّل فيها السياق من قصة نوح -عليه السلام- الخاطفة، إلى تفصيل قصة إبراهيم -عليه السلام-، متقاطعةً مع قضايا العقيدة الكبرى: التوحيد، والبعث، والابتلاء، والولاء والبراء.

تبدأ هذه المجموعة بعد مقدمة السورة التي قررت حتمية الابتلاء: (أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ). تأتي قصص الأنبياء هنا لتسليّة النبي ﷺ والمؤمنين في مكة، ولتثبيتهم أمام بطش قريش، ولبيان أن طريق الدعوة طويل، وأن العاقبة للمتقين.

*(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ)

افتتحت القصة بنوح لأنه شيخ المرسلين الصابرين، والمقصد الأسمى هنا هو بيان مدة الصبر والمطاولة. فالإشارة إلى المدة الزمنية الهائلة تكسر شعور الاستعجال لدى الجماعة المسلمة المستضعفة في مكة.

الإشراقة البلاغية والبيانية: التأكيد: استهلال الآية بـ الواو، واللام الموطئة للقسم، وقد (وَلَقَدْ) لرد إنكار المنكرين ولبيان أهمية الحقيقة التاريخية القادمة.

الفرق بين السنة والعام (إعجاز لغوي): قال ابن عاشور والبقاعي – رحمهما الله - إنّ التعبير بـ (أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا) فيه نكتة بلاغية؛ فالسنوات (جمع سنة) تُطلق غالباً في مقام الشدة والجدب (كما في سنوات القحط)، بينما "العام" يُطلق في مقام الرخاء والخصب. فكأن مدة الدعوة الشاقة كانت (950 سنة)، وما قبلها أو بعدها كان (50 عاماً) من الراحة أو الرخاء.

دقة التحديد: لم يقل "تسعمائة وخمسون" بل قال (أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ)؛ لتهويل المدة أولاً (الألف أوقع في النفس)، ولرفع مجازية الرقم (تأكيد على الرقم الحقيقي الحرفي بالاستثناء).

(أَلْفَ): ظرف زمان متعلق بـ (فَلَبِثَ)، وجملة (وَهُمْ ظَالِمُونَ) حالية، تختصر وتلخص سنين وأنواع العناد والعنت الذي واجه به نوحاً عليه السلام قومه، والواو للحال، تفيد أن العذاب نزل بهم وتلبُّسهم بظلمهم لاقائم الذي لم ينقطع، فلا ظلم من الله لهم.

*(فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ): السياق والمقاصد: بيان ثمرة الصبر (النجاة)، وتأصيل سنة الله في إهلاك الظالمين وإنجاء المؤمنين.

اللطائف البلاغية والبيانية:

السرعة: عُطفت النجاة بالفاء (فَأَنجَيْنَاهُ) الدالة على التعقيب والسرعة؛ فبعد 950 سنة من الصبر، جاء الحسم الإلهي سريعاً وحاسماً بمجرد صدور الأمر.

الارتباط الإنساني: وصف المؤمنين بـ (أَصْحَابَ السَّفِينَةِ)؛ إشارة إلى أن النجاة ارتبطت بالعمل والالتصاق بـ "سبب النجاة" (السفينة التي تمثل طاعة الله ورسوله).

(وَأَصْحَابَ): الواو هنا واو المعية، و(أصحاب) مفعول معه منصوب، أو هي واو العطف. والأولى أبلغ لإظهار المعية المطلقة في المصير والنجاة داخل الفلك. (آيَةً): مفعول به ثانٍ للفعل (وَجَعَلْنَاهَا) الذي يفيد التحويل والتشريع الكوني.

*(وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ): الانتقال إلى قصة إبراهيم -عليه السلام-، وهو الأب الروحي للعرب وموضع فخر قريش، المقصد هو إقامة الحجة عليهم بما كان يدعو إليه جدهم الأعلى: التوحيد الخالص والتقوى.

الإشراقة البلاغية والبيانية: تقديم العبادة على التقوى: العبادة غاية، والتقوى سياج وحماية. وقيل: العبادة فعل الطاعات، والتقوى ترك المنهيات.

اسم الإشارة البليغ: (ذَٰلِكُمْ) استخدم اسم الإشارة للبعيد لتعظيم شأن العبادة والتقوى ورفع مكانتهما.

(وَإِبْرَاهِيمَ): منصوب بفعل مضمر تقديره (واذكر إبراهيم)؛ وهذا الحذف يزيد من لفت الانتباه والتشويق. (إِذْ): بدل اشتمال من إبراهيم (أي اذكر قوله وقت إذ قال)، أو ظرف زمان للفعل المقدر.

*(إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

السياق والمقاصد: تفكيك المنظومة الوثنية عبر المحاكمة العقلية والمادية (الرزق).

الإشراقة البلاغية والبيانية: الحصر بـ (إنما): قصر المعبودات على الأوثان لتسفيه عقولهم (إِنَّمَا تَعْبُدُونَ... أَوْثَانًا).

المعنى اللغوي للوثن: مأخوذ من "الوثون" وهو الثبات والدوام، لأن الوثن شيءٌ مقيم وراكد في مكانه لا يتحرك، فيعبده الجاهلون. وروده في القرآن الكريم: جاء في صيغة الجمع (الأوثان)، كما هو الحال هنا، وقوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: 30].

الفرق بين الوثن والصنم: أنّ الصنم: هو ما نُحت أو صُور على هيئة إنسان أو حيوان، أمّ الوثن: لفظٌ أعم وأشمل؛ فكل صنم وثن، ولكن ليس كل وثن صنماً، إذ قد يكون الوثن حجراً غير منحوت أو أي شيء يُتخذ معبوداً من دون الله.

صناعة الكذب: عَبّر بـ (وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا)؛ والخلق هنا بمعنى الاختراع والافتراء. فـ "الإفك" (وهو أسوأ الكذب) لا وجود له في الحقيقة، بل هم من يصنعونه بألسنتهم، قال مجاهد: تصنعون أصناماً بأيديكم فتسمونها آلهة.

تقديم الظرف وأداة التعريف: في قوله (فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ): قدّم الظرف (عِندَ اللَّهِ) لإفادة القصر والانحصار، أي عند الله لا عند غيره. وجاء الرزق معرفاً بـ (أل) الاستغراقية، أي كل أنواع الرزق.

النكرة في سياق النفي (لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا) تفيد العموم المطلق؛ أي لا يملكون أي جزء أو نوع من أنواع الرزق، ولو كان نقيراً أو قطميراً.

*(وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)، السياق والمقاصد: هذه الآية يُحتمل أن تكون من كلام إبراهيم لقومه، أو هي التفات وخروج من سياق قصة إبراهيم لمخاطبة قريش (وهو ما يميل إليه ابن عاشور وسيد قطب). أو كلاهما مقصود، لتعلم قريش أن هذا قالوا جدهم إبراهيم لقومه عبدة الأصنام، ويقوله نبيهم محمد لهم صلى الله عليه وسلم. المقصد: رفع الضغط النفسي عن الداعية، وتحديد مسؤوليته (البلاغ) لا الهداية القسرية.

الإشراقة البلاغية والبيانية: التسلية والتهوين: تنبيه الطاغية المكذب بأن مسلكه ليس فريداً، بل هو مسبوق بأمم هلكت؛ وفي هذا تعريض ووعيد مبطن.

القصر البليغ: (وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ) قصر موصوف على صفة بالنفي والاستثناء (ما وإلا) لتأكيد انحصار وظيفة الرسول، ووصف البلاغ بـ {الْمُبِينُ} (أي الموضح الظاهر الذي لا لبس فيه) لتقوم الحجة كاملة، فهو لا يعذر الداعية عن البيان، ويطمئنه أنّ هداية التوفيق والألهام ليست بيده، كما قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) [القصص:56].

*(أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ): الانتقال من مناقشة "التوحيد" إلى مناقشة "البعث" (النشأة الأخرى) باستخدام دليل القياس العقلي (المعاينة الكونية).

الإشراقة البلاغية والبيانية: الاستفهام الإنكاري التعجبي: (وَلَمْ يَرَوْا) لتقريعهم على عمى البصيرة.

التعبير بالمضارع: (يُبْدِئُ... ثُمَّ يُعِيدُ) للدلالة على التجدد والاستمرار؛ فالخلق مستمر في كل لحظة (ولادة، إنبات، إحياء).

التذييل الحاسم: (إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) جملة اسمية مؤكدة بـ (إنّ) لقطع دابر الشك. (والتعبير بـ "يسير" هو من باب المشاكلة ومخاطبة عقول البشر، وإلا فالكل هين على الله).

*(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

أمر صريح بإعمال النظر الجيولوجي والتاريخي والكوني عبر "السير في الأرض" لاستنباط حتمية البعث.

الإشراقة البلاغية والبيانية: من الرؤية الفكرية إلى الرؤية البصرية: في الآية السابقة قال (وَلَمْ يَرَوْا) (رؤية قلبية/عقلية)، وهنا قال (سِيرُوا... فَانظُرُوا)، رؤية بصرية تجريبية بالعين.

التعبير بالماضي والمستقبل: في بدء الخلق قال (بَدَأَ الخلق)، فعل ماضٍ لأنه شأن استقر وتاريخ مضى، وفي البعث قال (يُنشِئُ)، فعل مضارع يفيد الاستقبال الفاصل وتحقيق الوقوع، أمّا المصدر المؤكد: (يُنشِئُ النَّشْأَةَ) مفعول مطلق لتأكيد وقوع هذا الحدث العظيم.

*(يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ): تقرير طلاقة المشيئة الإلهية، وزرع الخوف والرجاء في القلوب.

الإشراقة البلاغية والبيانية: التقديم والتأخير لغرض التخويف: قدّم العذاب (يُعَذِّبُ) على الرحمة (وَيَرْحَمُ) هنا لأن سياق الآيات السابقة سياق وعيد وإنكار وتكذيب، فكان الأنسب تصدير مقام التخويف والزجر.

التعبير بـ (تقلبون): (ثم إليه تُقْلَبُونَ)، فيها إشعار بالقهر والقدرة؛ فالتقليب يفيد التحويل رغماً عن المرء من حال إلى حال (من الدنيا إلى الموت، ومن القبر إلى النشور).

*(وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ): نفي العجز والهروب من النفوذ الإلهي، فقطع كل حبال الأمل في التملص من الحساب.

الإشراقة البلاغية والبيانية: التأكيد بـ (الباء) الزائدة: (بِمُعْجِزِينَ) لتوكيد نفي الإعجاز والهروب توكيداً جازماً.

الإحاطة المكانية: (فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)؛ أي لو صعدتم إلى السماء أو غصتم في الأرض فلن تفوتوا الله. وقيل: "ولا مَن في السماء بمعجزٍ الله لو عصاه" (ابن تيمية وابن القيم يقرران شمولية الملكية الإلهية لكل العوالم).

الفرق بين الولي والنصير: الولي: هو من يتولى أمورك ويجلب لك النفع ابتداءً. النصير: هو من يدفع عنك الضر والسوء عند وقوعه. فنفى الله الأمرين عن الكافرين.

(مِن وَلِيٍّ): (مِن) حرف جر زائد لاستغراق النفي، و(وليّ) مبتدأ مؤخر مرفوع محلاً مجرور لفظاً.

*(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ): في هذا حسم مصير الجاحدين بالآيات والبعث.

الإشراقة البلاغية والبيانية: استخدام اسم الإشارة (أولئك): تكرر مرتين (أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)؛ لإفادة البعد والتحقير والتمييز لهم في الشقاء والعياذ بالله.

صيغة الماضي لليأس: قال (يَئِسُوا) بالماضي للدلالة على أن يأسهم من الرحمة يوم القيامة أمر مقطوع به ومتحقق كأنه قد مضى. ويشير (سيد قطب) هنا إلى أنّ طردهم من الرحمة هو أقسى أنواع العذاب النفسي قبل العذاب الجسدي، أي أنّ يئسوا تتضمن معنى طردوا، فانقطع أملهم فيها.

*(فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

العودة لمسار قصة إبراهيم بعد الفاصل العقدي؛ لبيان غطرسة الباطل عند انهزامه حجّياً. فالباطل حين تفلس حجته العقلية يلجأ لقوة البطش (القتل والحرق).

الإشراقة البلاغية والبيانية: قصر الجواب على العنف: (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا...) أسلوب حصر يبين انغلاق عقولهم بالكامل، فلا حوار ولا نقاش، بل قتل وإبادة.

الفاء الفورية: (فَأَنجَاهُ اللَّهُ) تدل على المباشرة الإلهية بإبطال الناموس الكوني (النار) بمجرد إلقائه؛ فلم تأخذ النجاة وقتاً.

جمع الآيات: قال (لَآيَاتٍ) بالجمع؛ لأن نجاة إبراهيم من النار تشتمل على آيات متعددة: سلب النار خاصية الإحراق، بقاء إبراهيم حياً يتنفس داخلها، عدم احتراق ثيابه، جعلها برداً وسلاماً، وفي هذا تعريض لطب قريش وإلحاحهم في طلب الآيات.

فكأنما يقول الله للمجادلين وطالبين الآيات دونكم خذوا من نجاة إبراهيم من النار ما شئتم من الآيات.

عن أبي هريرة رضي الله: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَومًا يُحَدِّثُ - وعِندَه رَجُلٌ مِن أهلِ البادِيةِ-: أنَّ رَجُلًا مِن أهلِ الجَنَّةِ استَأذَنَ رَبَّه في الزَّرعِ، فقال له: ألَستَ فيما شِئتَ؟ قال: بَلى، ولَكِنِّي أُحِبُّ أن أزرَعَ، قال: فبَذَرَ، فبادَرَ الطَّرفَ نَباتُه واستِواؤُه واستِحصادُه، فكان أمثالَ الجِبالِ، فيَقولُ اللهُ: دونَكَ يا ابنَ آدَمَ؛ فإنَّه لا يُشبِعُكَ شَيءٌ. فقال الأعرابيُّ: واللهِ لا تَجِدُه إلَّا قُرَشيًّا أو أنصاريًّا؛ فإنَّهم أصحابُ زَرعٍ، وأمَّا نَحنُ فلَسنا بأصحابِ زَرعٍ! فضَحِكَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. [1].

فالله سبحانه يحب العذر كما في حديث سعد بن عبادة قال: قال سَعدُ بنُ عُبادةَ: لو رَأيتُ رَجُلًا مع امرَأتي لَضَرَبتُه بالسَّيفِ غيرَ مُصفَح، فبَلَغَ ذلك رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: أتَعجَبونَ مِن غَيرةِ سَعدٍ؟! واللهِ لَأنا أغيَرُ منه، واللهُ أغيَرُ مِنِّي، ومِن أجلِ غَيرةِ اللهِ حَرَّمَ الفَواحِشَ ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ، ولا أحَدَ أحَبُّ إليه العُذرُ مِنَ اللهِ، ومِن أجلِ ذلك بَعَثَ المُبَشِّرينَ والمُنذِرينَ، ولا أحَدَ أحَبُّ إليه المِدحةُ مِنَ اللهِ، ومِن أجلِ ذلك وعَدَ اللهُ الجَنَّةَ [2].

(جَوَابَ): خبر كَانَ مقدم منصوب. والمصدر المؤول (أَن قَالُوا) هو اسم كَانَ المؤخر. التقديم هنا للاهتمام بالجواب الغريب الفظيع الذي صدر منهم.

*(وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ)

تعرية الروابط الاجتماعية الزائفة القائمة على الكفر، وبيان مآلها التشذرمي والتبرؤ المتبادل في الآخرة.

الإشراقة البلاغية والبيانية: حقيقة الروابط الشركية يكشفها إبراهيم -عليه السلام- بعبقرية نفسية واجتماعية، أشار إلى ذلك ابن القيم – رحمه الله - بكثافة في كتبه، أنّ سر اجتماعهم على الأوثان ليس الاقتناع بها، بل العصبية والمجاملة الاجتماعية والسياسية (مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا).

---

1 - أخرجه البخاري (2348) من أفراد البخاري على مسلم.
2 - أخرجه البخاري (7416) ومسلم (1499)، وأحمد (18168)، وأبو عوانة (5157) واللفظ لهم .

المقابلة والطباق الزمني والنفسي: في الدنيا: (مودة، اجتماع، ألوفة)، يقابله في الآخرة: (يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ لعصكم بعضاً)، انقلاب المودة إلى لعن، والاتحاد إلى تبرؤ).

قُرأ ابن كثير وأبو عمر وشعبة عن عاصم ورويس عن بعقوب والكسائي بالرفع {مَوَدَّةُ بَيْنِكُمْ} على أنه خبر لمبتدأ محذوف، وقرأ الباقون وحمزة {مَّوَدَّةَ} بالنصب على أنه مفعول لأجله (أي اتخذتموها لأجل المودة)، وكلتا القراءتين تثبتان أنّ الوثنية هنا مصلحة اجتماعية وليست عقيدة عقلية.

*(فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ): هنا ظهور أولى ثمرات الدعوة (إيمان لوط وهو ابن أخي إبراهيم)، وبدء مرحلة جديدة وهي "الهجرة" فراراً بالدين، وهو المقصد الأشد على نفوس المهاجرين من مكة.

الإشراقة البلاغية والبيانية: تعدية الإيمان باللام: قال (فَآمَنَ لَهُ) ولم يقل "آمن به"؛ لأن الإيمان باللام يفيد الانقياد والاتباع والتصديق المقرون بالطاعة والموافقة في الهجرة والمذهب والمسير.

الهجرة "إلى الله": قال (إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي)؛ ولم يذكر المكان الجغرافي (الشام/مصر)، بل جعل الوجهة هي "الله"؛ لأن المهاجر يترك الأرض لله، فكانت وجهته المعنوية أولى بالذكر لتربية النفوس على التجرد.

التذييل بالاسمين العظيمين: (الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) العزيز الذي يحمي المهاجرين فلا يُضامون، الحكيم الذي يقدّر الهجرة ويوجهها في وقتها المناسب.

*(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ).

المكافأة الإلهية الكبرى العاجلة والآجلة لإبراهيم بعد تضحيته بالوطن والأهل وهجرته في سبيل الله.

الإشراقة البلاغية والبيانية: التعبير بالهبة: (وَوَهَبْنَا) يفيد العطاء بلا مقابل، وإعطاء الشيء على كبر السن ويأس العادة الكونية، الولادة في الشيخوخة .

حصر النبوة والكتاب: قوله (وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ) تكريم مذهل؛ فكل الأنبياء والكتب والرسالات التي جاءت بعد إبراهيم، بما في ذلك بني إسرائيل وعيسى ومحمد ﷺ، خرجت من صلب إبراهيم.

شمولية الأجر: (وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا) من الثناء الحسن، والذكر الباقي، والولد الصالح، وسعة الرزق. ثم الحفظ للآخرة المقترن بـ (لام التوكيد) (وإنه في الآخرة لَمِنَ الصَّالِحِينَ).

النظرة الكلية الشاملة: تركز مدرسة المحققين، ابن تيمية وابن القيم – رحمهما الله- في هذه الآيات على تجريد التوحيد، وبيان تهافت الشرك الباطني (مشركو مكة اتخذوا الأوثان مودة وعصبية تماماً كقوم إبراهيم). كما تبرز الآيات "أعمال القلوب" كاليأس من الرحمة، والتوكل الكلي في الهجرة في قوله: (إِلَىٰ رَبِّي).

أمّا مدرسة النظم والبلاغة، البقاعي وابن عاشور – رحمهما الله – فذهبوا إلى أنّ الآيات أظهرت تناسباً فذاً؛ فالتكذيب في سورة العنكبوت قوبل بعرض مطول لقصة إبراهيم عليه السلام، لأن مشركي مكة يزعمون أنهم على مِلة إبراهيم، فنقض القرآن دعواهم ببيان أنّ إبراهيم حارب الأوثان وهجر الأهل في سبيل التوحيد.

أمّا المدرسة الحركية والظلال، سيد ومحمد قطب – رحمهما الله -: فذكروا أنّ الآيات تبرز طبيعة "الجماعة المؤمنة" المستضعفة وثباتها أمام قوى الباطل الطاغية، والتحرر التام من ضغط المجتمع الذي تمثله البيئة الجاهلية والمودة الزائفة، مع استحضار الحقيقة الكونية الكبرى: النصر للمؤمنين ولو بعد ألف سنة إلاّ خمسين عاماً.

*(وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (28) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (29) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ(30) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (31) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (32) وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (33) إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (34) وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (35) وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (36) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (37) وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ(38) وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (39) فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(40))

هذه الآيات الكريمة في هذا الدرس من سورة العنكبوت إنما هي ملقط تاريخي وسياقي حاسم في السورة؛ حيث تدور بمجملها حول محور "الفتنة والابتلاء، وتمحيص الصف المؤمن، ومصارع الطغاة والمكذبين".

المقطع الأول: قصة لوط عليه السلام ومواجهته لقومه، *﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾.

تأتي قصة لوط هنا بعد قصة إبراهيم لتبيّن تنوع الابتلاءات؛ فبينما ابتلي إبراهيم بطغيان العقيدة والشرك وعودي حتى رمي في النار فأنجاه الله منها، ابتلي لوط بطغيان الشهوة وانعكاس الفطرة وابتلي حتى هدد بالطرد والإخراج من قريته.

الإشراقة البلاغية: ﴿وَلُوطًا﴾: مفعول به لفعل محذوف تقديره "واذكر"، وجاء العطف بالواو لربط سلسلة الأنبياء ككتلة واحدة في مواجهة الباطل.

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ﴾: مؤكد بـ (إنّ) و(لام الابتداء/المزحلقة). هذا التأكيد ليس لإنكار فعلتهم فحسب، بل لإنكار استمرائهم وجرأتهم عليه، كأنهم لا يرون فيه غضاضة.

﴿الْفَاحِشَةَ﴾: تعريفها بأل العهدية أو الجنسية لبيان أنها بلغت الغاية في القبح حتى تفرّدت بالاسم.

﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ﴾: الجملة في محل نصب حال. ودخول ﴿مِنْ﴾ الاستغراقية النكرة تفيد النفي القاطع؛ أي لم يفعلها بشر قط قبلكم. يقول ابن عاشور – رحمه الله -: "وفي هذا تشنيع إضافي، فالذنب العادي قبيح، لكن ابتكار واستمراء ذنب لم تعهده البشرية هو قمة الانتكاس النفسي".

*﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ...﴾: الإشراقة البلاغية: ﴿أَئِنَّكُمْ﴾: استفهام توبيخي إنكاري تقريعي، مشوب بالتعجب من حالهم.

﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾: قطع السبيل له معنيان تدبرهما العلماء: الأول: حقيقي (قطاع طرق يسلبون المسافرين)، والثاني: مجازي (بإعراضهم عن النساء قطعوا سبيل التناسل البشري). والنظم يحتمل المعنيين ليدل على فسادهم الاجتماعي والاقتصادي بجانب الفساد الأخلاقي.

﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾: النادي هو: مجلس القوم المتسع أو هو: المنتدى الذي يجتمع فيه القوم ويتنادون إليه، ومنه: دار الندوة؛ التي كانوا تجتمع فيها قريش في مكة ويتشاورون في شؤونهم.

غالباً ما يكون في النهار، وأما المجتمع في الليل فيسمى: السامر، كما قال تعالى: (مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ) [المؤمنون:67]، من السمر، وهو: ضوء القمر الذي يأنس به السمار، فيسهرون إلى غياب القمر.

عن ابن عباس رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يُصلّي عند المقامِ، فمرَّ به أبو جهلِ بنِ هشامٍ، فقال: يا محمدُ ألم أنهَكَ عن هذا؟ و توعَّدَه، فأغلظ له رسولُ اللهِ و انتهرَه، فقال: يا محمدُ بأيِّ شيءٍ تُهدِّدُني؟ أما و اللهِ إني لأكثرُ هذا الوادي ناديًا، فأنزل اللهُ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ) قال ابنُ عباسٍ: لو دعا ناديَهُ أخذتْهُ زبانيةُ العذابِ من ساعتِه[1].

فيكون في قوله (وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ) أنهم يجاهرون بهذا المنجر جهارا نهارا، كما أنّ تقديم الجار والمجرور ﴿فِي نَادِيكُمُ﴾ على المفعول به ﴿الْمُنكَرَ﴾ لبيان وقاحتهم؛ فالمنكر لا يُفعل في البيوت المستورة ولا يتستر به في جنح الليل وظلامه، بل يُجاهر به في المحافل العامة، مما يعني انهيار "الحياء العام".

ظلال التفسير البلاغي، يقول سيد قطب - رحمه الله -: "لقد انفرط عقد الجماعة، فلم يعد هناك حياء يزجر، ولا عرف يمنع، وتحول المنكر إلى ديدن جماعي يمارس علانية، وهذا مؤذن بخراب العمران".

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾: ﴿جَوَابَ﴾: خبر "كان" مقدم، و*﴿أَن قَالُوا﴾* المصدر المؤول هو اسمها المؤخر. تقديم الخبر يفيد حصر اهتمام النظم بالجواب الغريب الوقح.

﴿إِلَّا أَن قَالُوا﴾: أسلوب قصر يحصر ردة فعلهم في هذه الجملة الانتحارية. لم يناقشوا، لم يدفعوا التهمة، لم يلطبوا مهلة ليتفكروا، بل استعجلوا استئصالهم بأيديهم.

هذا يوضح عمى البصيرة وسكرة الشهوة، فهم يتحدون السنن الإلهية بتهكم.

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾

الإشراقة البلاغية: عندما ييأس النبي من الصلاح، ويتحول القوم إلى "مفسدين" بالوصف المطلق (بإدخال أل التعريف)، يصبح طلب النصرة حتمياً. لم يقل "انصرني على قومي" بل ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ لتسجيل العلة والسبب وراء استحقاقهم الهلاك.

---

(1) – أخرجه الترمذي (3349)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (11684)، وأحمد (2321) باختلاف يسير، والطبري في ((التفسير)) (525/24) واللفظ له، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة.

المقطع الثاني: مجيء الملائكة بالبشارة لإبراهيم عليه السلام والهلاك للمفسدين:

*﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾

ربط عجيب بين قصة إبراهيم ولوط؛ فالملائكة نزلت أولاً ببشارة إبراهيم بالولد، وفي طريقها مرت به لتخبره بمهمتها التدميرية لقوم لوط.

الإشراقة البلاغية: ﴿إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ﴾: عبّر باسم الفاعل ﴿مُهْلِكُو﴾ المضاف للدلالة على تحقيق الوقوع وثبوته كأنه رأي عين.

﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾: تعليل إلهي سريع للحكم بالإهلاك، حتى لا يُظن أن العذاب جاء جزافاً، وتأكيد بـ (إنّ) و(كانوا) التي تفيد رسوخ الظلم فيهم وصيرورته صفة ملازمة لهم.

*﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾

الإشراقة البلاغة: إبراهيم عليه السلام يدافع ويدفع باحتمالية وجود بارقة أمل، أو شفقة على لوط، لم يقل "كيف تهلكونهم وفيهم لوط؟" بل اكتفى بالجملة الاسمية المؤكدة ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾، وهو إيجاز بليغ يتضمن السؤال والدفاع.

جاء رد الملائكة حاسماً مسكناً لروع الخليل: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾؛ فصيغة أفعل التفضيل ﴿أَعْلَمُ﴾ تسقط أي توهم بنقص الإحاطة الإلهية بالصالحين.

﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ وأهله﴾: اللام موطئة للقسم، ونون التوكيد الثقيلة تفيد الوعد القاطع غير القابل للمراجعة.

﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾: استثناء متصل من الأهل، و*﴿الْغَابِرِينَ﴾* هم الباقون في الهلاك والماضون فيه، وتعبير بـ﴿كَانَتْ﴾ يوضح أن هلاكها تقرر في علم الله قديماً لخيانتها العقائدية، ومماثلتها للمجرمين.

*﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾

﴿أَن جاءت﴾: زائدة للتوكيد والربط السريع؛ تدل على المفاجأة والسرعة في الانتقال من مشهد الخليل إلى مشهد لوط.

﴿سِيءَ بِهِمْ﴾: فعل مبني لما لم يُسمَّ فاعله. ونائب الفاعل الجار والمجرور. يفيد هذا البناء اللغوي شدة الكرب الفجائي الذي غمر لوطاً، حتى كأن الحزن والمساءة

حلاّ به دون إرادة منه بمجرد رؤيتهم (لأنهم جاءوا في صورة شبان حسان، وهو يعلم خبث قومه).

﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾: "ذرعاً" تمكين وتمييز محول عن الفاعل (ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا). وهو تعبير كنائي يمثل عجز الطاقة البشرية عن التصرف وحماية الضيوف.

﴿...وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾

التقابل التربوي والنفسي: جمعت الملائكة بين النهي عن الخوف (من المستقبل وما سيفعله القوم بضيوفه) والنهي عن الحزن (على ما فات أو على مصير القرية).

أعادت الملائكة صياغة جملة التنجية بصيغة اسم الفاعل المؤكد بـ (إنّ): ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾ لتثبيت الطمأنينة الفورية في قلبه.

*﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، قوله سبحانه: ﴿رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾: أي: عذاب خارق غير معتاد، والتنكير للتهويل.

﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾: الباء سببية، وما مصدرية (بسبب فسقهم المستمر)، وجاء التعبير بالمضارع بعد "كانوا" للدلالة على تجدد الفسق واستمراره حتى صار طبيعة راسخة.

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: لتثبيت قلوب المؤمنين في مكة، ألمح إلى القرية التي أهلكت وأثرها باقٍ في البحر الميت ومحيطه. وخص ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ لأن العاقل هو من يربط الأسباب بمسبباتها، ويرى في جغرافيا الهلاك وعيداً تاريخياً مستمراً.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لأصحابِ الحِجرِ: لا تَدخُلوا على هؤلاء المُعَذَّبينَ إلَّا أن تَكونوا باكينَ، أن يُصيبَكُم مِثلُ ما أصابَهم [1].

الحِجْرُ وادٍ بين المدينةِ والشَّامِ، وهو المَكانُ الَّذي كان يَعيشُ فيه ثَمودُ قومُ نَبيِّ اللهِ صالحٍ عليه السَّلامُ، وقد نالَهم مِن عَذابِ اللهِ ما نالَهم؛ لتَكذيبِهم نَبِيَّهم، وعِصيانِ أمْرِ اللهِ، وذَبْحِ النَّاقَةِ الَّتي أرسَلَها اللهُ تعالَى مُعجِزَةً لهم.، والتحذير يشمل جميع قرى المعذبين، والله أعلم.

المقطع الثالث: استعراض مصارع الأمم وطغاة التاريخ: ينتقل النظم القرآني بسرعة خاطفة ليعرض لقطات سريعة لمدين، وعاد، وثمود، وقارون، وفرعون،

---

(1) – أخرجه البخاري (4420)، ومسلم (2980) باختلاف يسير.

وهامان. هذا الأسلوب يسمى في البلاغة "الجمع والتفصيل السريع" لإبراز هيمنة السنن.

*﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ، فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾.

الإشراقة البلاغية: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾: معطوف على الرسل السابقة؛ أي: وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً.

﴿أَخَاهُمْ﴾: تعبير بليغ يستثير العاطفة؛ فهو منهم يعرفون صدقه ونسبه، ولم يكن أجنبياً عنهم.

أما في سورة الشعراء لم يقل (أخاهم): لأنه نسبهم هناك إلى الشجرة التي يعبدونها (الأيكة)، وقيل: إنّ أصحاب الأيكة غير قومه هنا، إنما أرسل إلى أصحاب الأيكة بعد أن أهلك الله قومه، والله أعلم.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ﴾: التعقيب بالفاء يفيد السرعة الفائقة؛ كأن التكذيب التمس العذاب فوراً بلا مهلة.

﴿الرَّجْفَةُ﴾: الزلزلة الشديدة التي ترجف معها القلوب والأرض، وقوله: ﴿جَاثِمِينَ﴾: حال؛ أي هامدين لا حراك بهم، كالطير أو الحيوان الجاثم على صدره ميتًا.

*﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾

الإشراقة البلاغية النفسية: ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾: هذه الجملة الحالية هي أخطر ما في الآية. الاستبصار هو امتلاك أدوات الرؤية والعلم والذكاء الدنيوي. لم يكونوا جهلة، بل كانوا أذكياء، أصحاب حضارة وعمران (ينحتون من الجبال بيوتاً)، لكن هذا الذكاء العقلي لم يحمهم من الضلال لأن الشيطان ﴿زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾.

يقول ابن القيم – رحمه الله -: "العلم بلا زكاة نفس قد يكون وبالاً، فهم استبصروا في الدنيا وعموا عن الآخرة".

*﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾

هنا جمع لرموز الطغيان الثلاثة: طغيان المال (قارون)، طغيان السلطة السياسية (فرعون)، وطغيان الإدارة والوزارة الفاسدة (هامان).

﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾: هذا الأسلوب هو ما يسميه البلاغيون: استعارة مكنية من حلبة السباق؛ أي لم يكونوا ليفوتوا الله أو يعجزوه أو يهربوا من قبضته وسنته، مهما بلغت قوتهم.

الخاتمة الجامعة للمقطع: قانون العقوبة الإلهي: *﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

هذه الآية هي ذروة النظم البلاغي، وإليك تفصيلها في تنوع العذاب:

حَاصِبًا	الصَّيْحَةُ	خَسَفْنَا بِهِ	أَغْرَقْنَا
(قوم لوط / عاد)	(ثمود/ قوم شعيب)	(قارون)	أَغْرَقْنَا

المقابلة البلاغية والتوزيع الدقيق: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾: تقديم المفعول به ﴿كُلًّا﴾ يفيد العموم والشمول المطلق، ويفيد عذر هذا التنوع ، والله يحب العذر، فلا أحد مستثنى من السنن. والأخذ هنا تستعمل للأسر والقبض بشدة، ويسميها البلاغيون: استعادرة.

﴿فمنهم مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾: ريحاً ترمي بالحصباء (الحجارة الصغيرة)، وتناسب قوم لوط وعاد.

﴿ومنهم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾: الصوت المدمر من السماء، وتناسب ثمود وأهل مدين.

﴿ومنهم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾: تناسب قارون (فخسفنا به وبداره الأرض)، ﴿ومنهم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾: تناسب فرعون وهامان وجنودهما.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾: اللام هنا هي لام الجحود المشروطة بوقوعها بعد كون منفي (وما كان)، وهي تفيد المبالغة المطلقة في نفي الظلم عن الله عز وجل.

﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾: تقديم المفعول به ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ على الفعل ﴿يَظْلِمُونَ﴾ يفيد الحصر والقصْر؛ أي: لم يظلمهم أحد بل انحصر ظلمهم في حق أنفسهم بالشرك والمعاصي التي جلبت حتفهم.

النظرة الكلية والمقصدية: تأتي هذه السلسلة من العقوبات المتنوعة في سورة العنكبوت لتخاطب الجماعة المسلمة المستضعفة في مكة (وفي كل زمان): لا تهولنكم القوة المادية، ولا التمكين، ولا الذكاء الدنيوي، ولا التحايل الاجتماعي؛ فإن مصير هذه القوى المتمردة على الفطرة والعقيدة كمصير "بيت العنكبوت" (وهو خيط واهٍ لا يصمد أمام عواصف السنن الإلهية).

*(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (42) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (43) خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً

لِّلْمُؤْمِنِينَ (44) اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ(45) ۞ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (46) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ۚ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (47) وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (48) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (49) وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (50) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (51) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(52) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (53)يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (54) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(55))

هذه الآيات في هذا الدرس من سورة العنكبوت تأتي في ختام السورة التي دار محورها حول "الفتنة" (الابتلاء). بعد أن ضربت السورة الأمثال بالأنبياء في صبرهم على الفتنة، تنتقل هنا لتكشف "هشاشة" المنهج البديل الذي يتخذه المعرضون عن الله، وتضع خارطة طريق للثبات: (القرآن، الصلاة، الجدال بالتي هي أحسن، والعلم).

*(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

الإشراقة البلاغية: (التشبيه البليغ، حيث شبه الله اتخاذ الأولياء بالبيت، والمشرك بالعنكبوت.

يقول ابن القيم: إن هذا المثل يضرب للقلب الذي يعتمد على غير الله، فهو كمن يستظل ببيت من خيوط واهنة في حر الشمس؛ لا يكِنُّ من برد ولا يحمي من حر.

وقيل: بل التشبيه بالعلاقة وما يجري في أسرة العنكبوت، حيث تأكل الأنثى الذكر، ويؤكل بعض الصغار، وهو تنويع في الأسلوب وإعادة صياغة في وصف المشركين حيث ينقلب ودادهم غالبا إلى عداوات في الدنيا، وأما في الآخرة فكما قال سبحانه في أول السورة (وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ).

فصوّر علاقاتهم بالعلاقات في أسرة هذه الحشرة التي يأكل بعضها بعضا، والله أعلى وأعلم.

*(إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ): بعد كشف الهشاشة، جاء التهديد بالقدرة (العزيز) والحكمة (الحكيم).

الإشراقة البلاغية: تنكير "من شيء" للتحقير؛ أي أن ما يدعونه لا يرقى حتى لمرتبة "الشيء" المعتبر في الوجود.

*(وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ)، القرآن كتاب "عقل" لا مجرد طقوس. "يعقلها" فعل ذهني يتجاوز السمع إلى الإدراك والربط، فهي دعوة لتأمل معنى الآية وإعادة النظر في بيت العنكبوت وغيره من الأمثال التي ضربها الله في قرآنه.

رؤية تربوية: يرى محمد قطب – رحمه الله - أنّ هذه الآية تضع "العلم" كشرط للفهم القرآني. العلم هنا ليس المعرفة الأكاديمية فحسب، بل "بصيرة القلب" التي تدرك الغايات.

*(خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ)، الإشراقة البلاغية: (الحق) هنا تعني العدل، الغاية، الثبات، والصدق. الكون قائم على ميزان (حق)، والشرك خروج عن هذا الميزان، لذا هو "باطل" (ضد الحق).

*(اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ).

المنهج العملي للثبات: لماذا الصلاة؟ لأنها "حاجز نفسي" (تنهى عن الفحشاء والمنكر). الفحشاء هي: الرذائل الخفية، والمنكر هي: الرذائل الظاهرة.

الإشراقة البلاغية: (وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)، أي أن ذكر الله في الصلاة (أو الصلاة ذاتها) أكبر من مجرد كونها مانعة للفحشاء؛ هي "غاية" و"غذاء" للروح، وليست مجرد وسيلة وقائية.

*(وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)

الاستثناء في "إلا الذين ظلموا" هو ضبطٌ للسلوك السياسي والاجتماعي. الإسلام يفتح باب الحوار، لكنه يغلق باب الذل أو التهاون مع من يتعدى ويظلم.

الإشراقة البلاغية: استخدام "التي هي أحسن" (اسم تفضيل) يُلزم المؤمن بأن يبحث عن "أفضل" طرق الحوار، لا المقبولة فقط.

*(وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ، وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ۚ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَمَا يَجْحَدُ

بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ، وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ، بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ).

هذه الآيات تقيم "الحجة العقلية" على نبوة محمد ﷺ: يستدل ابن تيمية – رحمه الله - بهذه الآيات على "فطرة" القرآن؛ فالقرآن آيات "بينات" (واضحات لا لبس فيها) في صدور العلماء.

الجمال اللغوي: (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك). نفيُ "التلاوة" (القراءة) ونفي "الخط" (الكتابة) هو "دليل" قاطع على مصدر الوحي. لو كان قارئاً كاتباً لقالوا "تعلمه من الكتب"، لكن كونه "أميّاً" هو قمّة الإعجاز البلاغي والوجودي.

*(وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ...}، المشركون يطلبون "خوارق" (آيات مادية)، وكان هذا دأبهم ، والله يجيبهم بأن "القرآن" هو الآية المعجزة.

يرى سيد قطب – رحمه الله - أنّ هذا الرد يضع "المنهج" في نصابه: النبوة نذارة وبلاغ، وليست ساحة استعراض للأعاجيب لترضي أهواء المكذبين.

*(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

الإشراقة البلاغية: (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين). "محيطة" توحي بأنهم الآن في قبضة العذاب، وإن غاب عن وعيهم.

*(يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ).

الآيات تصور العذاب وهو يغشاهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم (تجسيد بصري لمشهد الهلاك). المقصد هنا هو "صدمة الوعي"؛ أن العذاب ليس حدثاً مستقبلياً غائباً، بل هو واقع يحيط بهم الآن بسبب كفرهم، ينتظر اللحظة الزمنية المحددة فقط.

الخلاصة: يؤكد البقاعي – رحمه الله - في (نظم الدرر) أنّ ختام هذا الدرس يربط بين ضعف بيت العنكبوت (المثل) وبين جهنم المحيطة (الواقع)؛ فالبداية وهمٌ في الدنيا، والنهاية عذابٌ محيط في الآخرة.

الصلابة بالحق: الآيات كلها تدور حول "الثبات". من اعتمد على الله (الذي خلق السماوات بالحق) فهو في "بيتٍ" حصين، ومن اعتمد على سواه فهو في "بيت" عنكبوت.

العلم واليقين: القرآن في هذه الآيات ليس مجرد كلمات، بل هو "آيات بينات في الصدور". الحجة ليست في الخارج (خوارق) بل في الداخل (إيمان القلب وعلم العقل).

هذا المقطع من السورة هو "ذروة مكثفة في التوحيد واليقين". إذا شعرت يوماً بالوهن من انتفاش الباطل وصولته، فاقرأ (وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ)، وإذا شعرت بضياع البوصلة، فاقرأ (اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ من الكتاب وأقم الصلاة)، وإذا واجهت شبهة، فتذكر أن المعجزة ليست في "الخرق" بل في "الصدق" (وما كنت تتلو من قبله من كتاب).

*(يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (56) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (57) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (58) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (59) وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (60) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (61) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (62) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ(63) وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (64) فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (65) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (66) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (67) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (68) وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ(69))

هذا هو الدرس الختامي المهيب من سورة العنكبوت؛ وهو يمثل ذروة السورة ومصبّ مقاصدها كذلك. فبعد أن عرضت السورة في أشواطها السابقة لطبيعة الفتنة، وصور الصراع بين الحق والباطل، وهشاشة معاقل الشرك (بيت العنكبوت)؛ تأتي هذه الآيات لتضع "العلاج الحاسم" وتفك القيود النفسية والمادية التي تقعد بالمؤمن عن الصدع بالحق والتحرر من ربقة البيئة الضاغطة.

*(يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ): لما بيّن في الآيات السابقة شدة وعيد الكافرين، وكان المؤمنون بمكة في ضيق واضطهاد يمنعهم من إظهار دينهم، جاءت هذه الآية "إذن رباني بالهجرة" وتوسعة لما ضاقت به الصدور.

الإشراقة البلاغية: إضافة العباد إلى ياء المتكلم (يَا عِبَادِيَ) للتشريف والإيناس ولتلطيف الخطاب واستثارة عاطفة الولاء، ومسح آلام الغربة والاضطهاد.

كما أنّ صيغة القصر والتخصيص: (فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ)؛ تقدم المفعول به (إِيَّايَ) على الفعل يفيد الحصر والقصر؛ أي: اتركوا دياركم وأموالكم لتمحضوا العبادة لي وحدي، فلا عذر لكم بضغط المكان.

الرؤية المقاصدية والتربوية: يقرر سيد قطب – رحمه الله - هنا أنّ "العقيدة هي الوطن الباقي"، فإذا ضاقت أرض العقيدة فكل الأرض الممتدة هي أرض الله. الهجرة هنا انسلاخ عن البيئة الجاهلية الضاغطة لحماية الاستعلاء الإيماني.

*(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ): جاءت الآية استئنافية لتبديد أعظم هاجس يعتري المهاجر أو المجاهد؛ وهو خوف الموت بالفناء أو القتل والتشرد.

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: عادَني النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عامَ حَجَّةِ الوداعِ مِن مَرَضٍ أشفَيتُ منه على المَوتِ، فقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، بَلَغَ بي مِنَ الوجَعِ ما تَرى، وأنا ذو مالٍ، ولا يَرِثُني إلَّا ابنةٌ لي واحِدةٌ، أفَأتَصَدَّقُ بثُلُثَي مالي؟ قال: لا، قالَ: فأتَصَدَّقُ بشَطرِه؟ قال: الثُّلُثُ يا سَعدُ، والثُّلُثُ كَثيرٌ، إنَّكَ أن تَذَرَ ذُرِّيَّتَكَ أغنياءَ خَيرٌ مِن أن تَذَرَهم عالةً يَتَكَفَّفونَ النَّاسَ، ولَستَ بنافِقٍ نَفَقةً تَبتَغي بها وجهَ اللهِ إلَّا آجَرَكَ اللهُ بها، حتَّى اللُّقمةَ تَجعَلُها في في امرَأتِكَ. قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، أُخَلَّفُ بَعدَ أصحابي! قال: إنَّكَ لَن تُخَلَّفَ فتَعمَلَ عَمَلًا تَبتَغي بها وجهَ اللهِ إلَّا ازدَدتَ به دَرَجةً ورِفعةً، ولَعَلَّكَ تُخَلَّفُ حتَّى يَنتَفِعَ بكَ أقوامٌ ويُضَرَّ بكَ آخَرونَ، اللهُمَّ أمضِ لأصحابي هِجرَتَهم، ولا تَرُدَّهم على أعقابِهم، لَكِنِ البائِسُ سَعدُ بنُ خَولةَ. يَرثي له رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن توفِّيَ بمَكَّةَ. [وفي رِوايةٍ]: أن تَذَرَ ورَثَتَكَ [1]..

البلاغة البصرية: عبر بـ {ذَائِقَةُ} باسم الفاعل المضاف، مما يوحي بأن الموت مر المذاق، لكنه ليس إلاّ لحظة عابرة (تذوُّق) تعقبها الحياة الحقيقية بالمصير والرجوع {ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}. وفي هذا تهوين لأمر الموت في سبيل الله؛ فالموت قادم حتمًا في موطن الاستقرار أو موطن الغربة، فليكن في سبيله سبحانه.

ومنهم من تخفف عليه هذه الذائقة: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما يجدُ الشَّهيدُ من مسِّ القتلِ إلَّا كما يجدُ أحدُكُم من مَسِّ القرصةِ.[2].

---

(1) – أخرجه البخاري (3936)، ومسلم (1628)، وأبو داود (2864)، والترمذي (2116)، وأحمد (1524) واللفظ لهم.

(2) – أخرجه الترمذي (1668) واللفظ له، والنسائي (3161)، وابن ماجه (2802)، وأحمد (7953)، قال الترمذي عن سنده: حسن صحيح، ووافقه الألباني

*(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)

الإشراقة البلاغية والمشاكلة السياقية: تقابل هذه الآية فكرة "ترك الديار" في الهجرة. فمن ترك بيتًا وهنًا كبيت العنكبوت في الدنيا، أو ترك دارًا في مكة اضطُر فيها إلى الضيق، أبدله الله مكانها (غُرَفًا)، والغرفة في الدنيا هي: البناء العالي المشرف، فما بالك بالغرفة من غرف الجنة.

الفعل (لَنُبَوِّئَنَّهُم) (من التبوء وهو اتخاذ المبوأ والمسكن) جاء مؤكدًا بلام القسم ونون التوكيد الثقيلة، ليزيل كل شك في العوض والجزاء.

(نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)؛ أسلوب مدح، وحذف المخصوص بالمدح للعلم به (أي: نعم أجر العاملين تلك الغرف).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قُلنا يا رسولَ اللَّهِ: ما لَنا إذا كنَّا عندَكَ رقَّت قلوبُنا، وزَهِدنا في الدُّنيا، وَكُنَّا من أَهْلِ الآخرةِ، فإذا خَرجنا من عِندِكَ فآنَسنا أَهالينا، وشَمِمنا أولادَنا أنكَرنا أنفسَنا فقالَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ: لو أنَّكم تَكونونَ إذا خرجتُمْ من عندي كنتُمْ على حالِكُم ذلِكَ لزارتْكمُ الملائِكَةُ في بيوتِكُم ، ولو لم تُذنِبوا لجاءَ اللَّهُ بخَلقٍ جديدٍ كي يُذنِبوا فيغفرَ لَهُم قالَ: قلتُ يا رسولَ اللَّهِ ممَّ خُلِقَ الخلقُ؟ قالَ: منَ الماءِ، قلتُ: الجنَّةُ ما بناؤُها؟ قالَ: لبِنةٌ من فضَّةٍ ولبنةٌ من ذَهَبٍ، وملاطُها المسكُ الأذفرُ، وحصباؤُها اللُّؤلؤُ والياقوتُ، وتُربتُها الزَّعفرانُ مَن دخلَها ينعَمُ ولا يبأسُ، ويخلدُ ولا يموتُ، لا تبلَى ثيابُهُم، ولا يفنى شَبابُهُم ثمَّ قالَ: ثلاثٌ لا تُرَدُّ دعوتُهُم، الإمامُ العادلُ، والصَّائمُ حينَ يُفطرُ، ودعوةُ المظلومِ يرفعُها فوقَ الغمامِ، وتُفتَّحُ لَها أبوابُ السَّماءِ، ويقولُ الرَّبُّ تبارك وتعالى: وعزَّتي لأنصرنَّكِ ولو بعدَ حينٍ[1]..

*(الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ): عبر عن الصبر بالفعل الماضي (صَبَرُوا) بالإشارة إلى ثباتهم في الماضي على فتنة مكة وتجرعهم لمرارتها، وكأن الصبر أصبح طبيعة استقرت ومضت.

بينما عبر عن التوكل بالفعل المضارع (وعلى ربهم يَتَوَكَّلُونَ) لإفادة التجدد والاستمرار؛ لأنهم يستقبلون حياة جديدة وهجرة مجهولة تحتاج إلى دوام وتجدد التوكل في كل خطوة.

---

(1) – أخرجه الترمذي (2526)، وأحمد (8043) باختلاف يسير، وصحح الترمذي إسناده ووافقه الألباني

أصول الدين: يلمح ابن تيمية – رحمه الله – إلى أنّ جماع الدين كله قائم على هذين الأصلين؛ فالصبر وهو عتاد مواجهة المكاره، والتوكل وهو محرك الاستعانة لقطع مفاوز الطريق.

قال ابن القيم - رحمه الله - في كتابه الشهير مدارج السالكين،" :*سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله - يقول: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين*، قال تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) [السجدة:24].

*(وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)، السياق والمقصد: بعد علاج هاجس "خوف الموت"، جاء هنا علاج هاجس "خوف الفقر وانقطاع الرزق" بسبب الهجرة وترك التجارة والديار.

الإشراقة البلاغية: (وَكَأَيِّن) اسم مركب يفيد التكثير (بمعنى كثير من). وتأمل التلطف البلاغي في قوله: (اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ)؛ فقد قدم رزق الدواب الضعيفة التي لا تدخر قوتًا ولا تملك حولًا ولا قوة، ليقيس الإنسان نفسه عليها؛ فمن رزق الطير والدابة العاجزة في فلوات الأرض لن يترك المهاجر الذي خرج في سبيله.

الفاصلة القرآنية: خُتمت بـ (السَّمِيعُ) لدعائكم وخفقات قلوبكم الوجلة، (الْعَلِيمُ) بحالكم وحاجتكم وفاقاتكم.

*(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ).

المحاكمة العقلية وسياق النظم: ينتقل النص إلى تقريع المشركين عبر إلزامهم بتوحيد الربوبية ليعترفوا بتوحيد الألوهية.

الإشراقة البلاغية: الكلمة الاستفهامية التعجبية (فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ) (أنى تعني: كيف، ويؤفكون: يصرفون من الإفك وهو القلْب والتحريف). والفاعل في "يؤفكون" مبني للمجهول للإشارة إلى أن انصرافهم عن الحق بلغ حدًا من الغرابة واللا معقولية كأن هناك قوة خفية صرفتهم، أو أنّهم ينصرفون بلا أدنى تفكير عقلاني.

*(اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)، الإشراقة البلاغية: الطباق بين (يَبْسُطُ} أي: يوسع) و (وَيَقْدِرُ) أي: يضيّق.

هذه الآية تربط بين رزق الدواب ورزق البشر؛ لتبين أن السعة والضيق ليسا علامة على الرضا أو الغضب، ولا هما مرتبطين بالبقاء في مكة أو الخروج منها، بل بـ "المشية الإلهية" القائمة على العلم المحيط (بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ). فلا تظنوا أن بقاءكم في مكة يضمن الرزق، ولا خروجكم منها يجلب الفقر.

*(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)

الإشراقة البلاغية والربط التدبري: لماذا تكرر السؤال عن مظاهر الربوبية؟ هنا يضرب مثلًا ماديًا مشهودًا لإحياء الأرض الميتة بالماء بعد موتها، وفي هذا إشارة خفية موازية لإحياء القلوب الميتة بالوحي، وإحياء المؤمنين بعد موت الخوف والاضطهاد.

الاعتراض والتعقيب: الأمر الإلهي للرسول بـ (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ) جاء فورًا عقب اعترافهم؛ حمدًا لله على ظهور الحجة واستقامة الدليل الفطري عليهم، ثم جاء الوصف القاسي لحالتهم الذهنية: (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) لأنهم يناقضون اعترافهم اللساني بسلوكهم العملي الشركي.

*(وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ).

التحليل اللساني والإشراقة البلاغية والمقاصدية: القصر والتحقير: (وَمَا هَٰذِهِ... إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ) أسلوب قصر يفيد إحاطة الدنيا وتلخيصها في هذين الوصفين. استخدام اسم الإشارة الذي يفيد هنا "التحقير" كما يفيد في أصله القرب (هَٰذِهِ) كأنها شيء هين تافه يُشار إليه باستهانة.

لفظة "الحيوان": من روائع الدرس اللساني في القرآن؛ فالـ (الْحَيَوَانُ) على وزن "فَعَلان"، وهو بناء لغوي في العربية يدل على الحركة والاضطراب والتموج والتجدد (مثل غليان، وجريان، وفيضان). فالآخرة ليست مجرد حياة ساكنة، بل هي "الحياة الممتلئة بالحيوية المطلقة والحركة الخالدة" التي لا يعتريها موت أو فتور.

يرى سيد قطب – رحمه الله - هنا سكبًا للموازين الحقيقية في نفس المؤمن ليتخلص من ثقل الأرض؛ فكل المعاناة والفتن في الدنيا هي مجرد "لعب أطفال" مقارنة بالحياة الحقيقية المتدفقة في الدار الآخرة.

*(فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ).

الإشراقة البلاغية والمشهدية التصويرية: ينتقل القرآن لتصوير مشهد سيكولوجي مذهل للإنسان الجاهلي. ففي لحظة الخطر الداهم (ركوب الفلك وتلاطم الأمواج)، تسقط كل الأقنعة والأوثان والوسائط، وتبرز "الفطرة" نقية فيدعون الله مخلصين.

المفاجأة النحوية البلاغية: التعبير بـ {إِذَا} الفجائية في قوله (إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ)؛ ليدل على سرعة وسقوط عودتهم إلى الشرك بمجرد أن لمست أقدامهم أرض البر الآمنة، وهو تصوير لمدى النكران والتقلب البشري.

*(لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)، الإشراقة البلاغية: اللام في {لِيَكْفُرُوا} و {وَلِيَتَمَتَّعُوا} هي لام العاقبة والصيرورة (أو لام الأمر التي يراد بها التهديد والوعيد والتخلية)، وليست لتعليل الهدف. أي: فليجعلوا شكر نجاتهم الكفر والتمتع القصير الهين، المتبوع بوعيد شديد حاسم: (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)، حيث حذف مفعول "يعلمون" للتهويل والتعظيم؛ أي فسوف يعلمون ما ينالهم من العذاب والندامة.

*(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ)

السياق والمحاججة النفيسة: هذا رد مباشر على معذرة قريش في عدم الإيمان (كما في سورة القصص: "إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا"). يذكرهم الله بامتنانه عليهم بنعمة الأمن الاستثنائي في الحرم المكي بينما القبائل من حولهم تعيش في سلب ونهب وتخطف.

التقابل والبلاغة: مفارقة صارخة بين ثبات أمنهم (حَرَمًا آمِنًا) واضطراب العالم حولهم (وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ من حولهم)، حيث جاء الفعل مضارعًا يفيد تكرار الخطف وتجدده حولهم. فالذي أمنهم كفارًا، ألا يؤمنهم مؤمنين؟ (أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ}؟ أسلوب استفهام إنكاري توبيخي شنيع.

*(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ)

الإشراقة البلاغية والنحوية: الاستفهام في (وَمَنْ أَظْلَمُ...) يفيد النفي القاطع والدرجة القصوى في الجناية، فلا أحد أشد ظلمًا ممن يجمع بين الجناية على جناب الربوبية بالافتراء، والجناية على الرسالة بالتكذيب بالحق الفوري دون تدبر (لَمَّا جَاءَهُ)، (لمّا) تفيد الحين والسرعة.

الخاتمة الزاجرة: (أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ)؛ استفهام تقريري، وكلمة (مَثْوًى)، من الإقامة والثواء، لتأكيد الاستقرار الأبدي لهم في هذا المآل الموحش.

*(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)، مسك الختام (الآية التاج في السورة):

هكذا بدأت السورة بـ الفتنة (ألم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون)، وتختم بـ الجهاد والهداية. فالفتنة لا تُدفع بالاستسلام، وإنما بالجهاد والمغالبة.

الإشراقة البلاغية: لقد أضاف الجهاد إليه بكلمة (فِينَا)، أي: مخلصين متجردين لوجهنا، لا لعصبية ولا لدنيا.

وجاء جواب الشرط مؤكدًا بثلاث مؤكدات: القسم المقدر، واللام، ونون التوكيد الثقيلة (لَنَهْدِيَنَّهُمْ).

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: جاءَ رَجُلٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: يا رَسولَ اللهِ، ما القِتالُ في سَبيلِ اللهِ؟ فإنَّ أحَدَنا يُقاتِلُ غَضَبًا، ويُقاتِلُ حَميَّةً، فرَفَعَ إليه رَأسَه -قال: وما رَفَعَ إليه رَأسَه إلَّا أنَّه كان قائِمًا- فقال: مَن قاتَلَ لتَكونَ كَلِمةُ اللهِ هي العُليا فهو في سَبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ [1]..

تأمل الجمع بين الاسم الجمع المذكر للجهاد وبين سبل الهداية الجمع المضاف (سُبُلَنَا)؛ فمن جاهد في طريق واحد من طرق الحق، فتح الله له آفاقًا شتى من الهدايات (هداية توفيق، هداية حجة، هداية ثبات، وهداية إلى الجنة).

ثم تأمل المعية الإلهية، حيث خُتمت السورة بـ (وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ). والمعية هنا هي معية النصرة والتأييد والحفظ الخاصة. والجهاد هو ذروة الإحسان؛ فمن أحسن البلاء، حظي بأعظم عطاء؛ وهو أن يكون الله معه. يقول ابن القيم – رحمه الله -: "علّق سبحانه الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهاداً، وأفرض الجهاد جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا، فمن جاهد هذه الأربعة في الله، هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته".

*

سورة الروم

تسمية السورة

سورة الروم، ولا يُعرف لها في كتب السنة أو التفاسير أو المصاحف أسماء توقيفية أخرى. سُميت بهذا الاسم لافتتاحها بذكر غلبة الروم (الإمبراطورية البيزنطية)، والإخبار بنصرهم المستقبلي على الفرس.

وهي سورة مكية كلها بإجماع المفسرين، وقد ورد خلاف بين علماء العد في عدد آياتها، فهي ستون (60) آية: وهو عدد آيات سورة الروم عند معظم أهل العد.، لكن ذكر أنها تسع وخمسون (59) آية : وهو ما ذكره علماء عدد الآي في العدد المكي والمدني الأخير.

---

(1) –أخرجه البخاري (123)، ومسلم(1904)

سبب النزول: نزلت وقت انتصار الفرس على الدولة البيزنطية، وفرح المشركين بهذا النصر:

عن ابن عباس رضي الله عنهما: في قولِ اللَّهِ تعالى الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ قالَ غُلِبَت وغَلَبت كانَ المشرِكونَ يحبُّونَ أن يظْهرَ أَهلُ فارسَ على الرُّومِ لأنَّهم وإيَّاهم أَهلُ الأوثانِ وَكانَ المسلمونَ يحبُّونَ أن يظْهرَ الرُّومُ على فارسَ لأنَّهم أَهلُ الكتابِ فذَكروهُ لأبي بَكرٍ فذَكرَهُ أبو بَكرٍ لرسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ فقالَ أما إنَّهم سيَغلِبونَ فذَكرَهُ أبو بَكرٍ لَهم فقالوا اجعل بينَنا وبينَكَ أجلًا فإن ظَهرنا كانَ لنا كذا وَكذا وإن ظَهرتُم كانَ لَكم كذا وَكذا فجعلَ أجلًا خمسَ سنينَ فلم يظْهَروا فذَكروا ذلِكَ للنَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ فقالَ ألا جعلتَهُ إلى دونَ - قالَ أراهُ العشرَ قال قالَ سعيدٌ والبِضعُ ما دونَ العشرِ - قالَ ثمَّ ظَهرتِ الرُّومُ بعدُ. قالَ فذلِكَ قولُهُ تعالى الم غُلِبَتِ الرُّومُ إلى قولِهِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ قالَ سفيانُ سمعتُ أنَّهم ظَهروا عليْهم يومَ بدرٍ[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

*(الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(5) وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6)يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (7) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (8) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (9) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (10) اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (11) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (12) وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (13) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (14) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ(15) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ(16))

هذه الآيات الافتتاحية هي الدرس الأول من سورة الروم وتمثل وثيقة عقدية، وتاريخية، ونفسية هائلة.

*(الـم): الحروف المقطعة أسماء، مبنية على السكون لا محل لها من الإعراب في أصح الأقوال، وتُنطق بأسمائها لا بمسمياتها (ألف، لام، ميم). صَوْتياً: تبدأ من

1 - أخرجه الترمذي (3067) واللفظ له، وأخرجه البخاري (3360)، ومسلم (124) باختلاف يسير

أقصى الحلق (أ) مروراً بوسط الفم (ل) وصولاً إلى الشفتين (م)، وهو استيعاب لمخارج الحروف.

الإشراقة البلاغية: إيجاز إعجازي. تندرج تحت "التحدي والإعجاز"؛ أي أن هذا القرآن مؤلف من هذه الحروف التي تنطقون بها، لكنكم عاجزون عن الإتيان بمثله.

ويرى البقاعي – رحمه الله - في (نظم الدرر) أنّ الحروف المقطعة في فواتح السور هي بمثابة "أدوات تنبيه" للقلوب، وربطها بسياق السورة يدل على أن ما بعدها أمر عظيم يحتاج إلى جمع الفكر.

*(غُلِبَتِ الرُّومُ): (غُلِبَتِ): فعل ماض مبني لما لم يُسمَّ فاعله، والتاء للتأنيث وحُركت بالكسر منعاً لالتقاء الساكنين. (الرُّومُ): نائب فاعل مرفوع بالضمة الظاهرة.

الإشراقة البلاغية: بناء الفعل لما لم يسم فاعله {غُلِبَتِ} فيه "إيجاز حذف". حُذف الفاعل (وهم الفرس) لأن الغرض ليس التعريف بالمنتصر الآن، بل تسليط الضوء على انكسار القوة الرومانية التي كانت تُعدّ عظمى، وربط الحدث بالقدر الإلهي مباشرة.

يرى سيد قطب – رحمه الله – (في ظلال القرآن) أنّ هذه السورة تربط بين الأحداث الأرضية الصغيرة وبين الناموس الكوني العام، حيث كان المشركون بمكة يفرحون بانتصار الفرس (المجوس عبدة النار) على الروم (أهل الكتاب)، ويرون في ذلك فالاً حسناً لانتصارهم على المسلمين.

وجاءت اللفظة بصيغة الماضي لبيان تحقق الوقوع الجغرافي والسياسي الحاصل وقت نزول الآية.

*(فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ): (فِي أَدْنَى): جار ومجرور، وعلامة الجر الكسرة المقدرة للتعذر، (الأَرْضِ): مضاف إليه. (وَهُم): الواو حالية أو استئنافية، (هم) ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ. (مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ): جار ومجرور ومضاف إليه، و(غَلَبِ) هنا مصدر مضاف إلى مفعوله (أي من بعد أن غُلِبوا). (سَيَغْلِبُونَ): السين للاستقبال القريب، (يغلبون) فعل مضارع مرفوع بثبوت النون، والواو فاعل، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ (هم).

الإشراقة البلاغية: الجناس المشتق: بين (غُلِبَتِ)، (غَلَبِهِمْ)، (سَيَغْلِبُونَ)، يُحدث جرسًا إيقاعيًا يؤكد تقلب الأحوال.

كما أنّ المقابلة بين الانكسار الماضي والانتصار الآتي، والإعجاز العلمي واللغوي الجعرافي في {أَدْنَى}: (أدنى) تأتي بمعنى أقرب (أقرب الأرض إلى جزيرة

العرب وهي أطراف الشام)، وتأتي لغوياً بمعنى (أخفض)، وقد ثبت علمياً أن منطقة البحر الميت (مكان المعركة) هي أخفض نقطة على سطح الأرض.

يقول ابن تيمية – رحمه الله - ما معناه: إنّ هذا الإخبار الغيبي هو من أظهر دلائل النبوة، لأن التنبؤ بانتصار دولة سُحقت تماماً وشارفت على الزوال في غضون سنوات معدودة هو مجازفة لا يمكن لسياسي أو بشر أن يجزم بها إلاّ بـوحي يوحى.

*(فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ): (فِي بِضْعِ): جار ومجرور متعلق بـ (سَيَغْلِبُونَ)، و(البضع) في اللغة ما بين الثلاث إلى التسع. (لِلَّهِ}: جار ومجرور في محل رفع خبر مقدم. (الأَمْرُ): مبتدأ مؤخر مرفوع. (مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ): ظرفا زمان بنيا على الضم لقطعهما عن الإضافة لفظاً لا معنى (أي: من قبل الغلب ومن بعده).

الإشراقة البلاغية: القصر الحصري: (لِلَّهِ الْأَمْرُ) بتقديم الخبر الجار والمجرور ليفيد الاختصاص؛ فالأمر كله بيده وحده لا بيد الفرس ولا الروم.

الحذف والتقدير البليغ: في بنيان الظروف (قَبْلُ) و(بَعْدُ) لتذهب نفس السامع في تقدير الأزمان كل مذهب يخدم فكرة الهيمنة الإلهية المطلقة.

ابن القيم – رحمه الله - يتحدث في كتبه: (زاد المعاد) و(مفتاح دار السعادة) عن حكمة الابتلاء، ويرى هنا ملمحاً نفسياً عظيماً: الله يربط قلوب المؤمنين بالكون الفسيح؛ فهم ليسوا معزولين في شعاب مكة، بل إن قضايا الحق والباطل في الأرض تهمهم.

وفرح المؤمنين هنا مزدوج: يفرحون بصدق وعد الله الغيبي، ويفرحون بانتصار أهل الكتاب (الروم) على الوثنيين (الفرس)، وتزامن ذلك تاريخياً مع فرحة المسلمين بنصر بَدْر.

*(بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ): (بِنَصْرِ): جار ومجرور متعلق بـ (يَفْرَحُ). (يَنصُرُ): فعل مضارع مرفوع. (مَن): اسم موصول مبني في محل نصب مفعول به. (وَهُوَ): الواو استئنافية، (هو) مبتدأ. {الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}: خبران للمبتدأ مرفوعان.

الإشراقة البلاغية: الالتفات بالأسماء الحسنى (الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ). "العزيز" الذي لا يُغلب، و"الرحيم" بعباده المؤمنين. الجمع بين الصفات يفيد الكمال؛ فهو ليس عزّاً جبروتياً مجرداً، بل محاط بالرحمة.

يقول ابن عاشور – رحمه الله - في (التحرير والتنوير): "تذييل الآية بهذين الاسمين فيه إيماء إلى أن نصر الله الروم هو من أثر عِزّته وسلطانه، وأن فرح

المؤمنين بذلك النصر هو من رحمته بهم؛ لتقوى نفوسهم ويرتد كيد المشركين في صدورهم".

*(وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ): (وَعْدَ اللَّهِ): (وعدَ) مصدر مفرغ ناصبه فعل محذوف وجوباً، تقديره: "وعدَ اللهُ ذلك وعداً"، فهو مفعول مطلق مؤكِّد لنفسه. (لَا يُخْلِفُ): (لا) نافية، (يخلف) مضارع مرفوع، (وَلَٰكِنَّ): حرف مشبه بالفعل للاستدراك، (أَكْثَرَ): اسم لكن منصوب، (لَا يَعْلَمُونَ): جملة فعلية في محل رفع خبر لكن.

الإشراقة البلاغية: تكرار لفظ الجلالة {اللَّهِ} في الآية ثلاث مرات (وعد الله، لا يخلف الله، بنصر الله في السابقة) يرسخ في روع السامع مهابة المقرِّر والموجِد للأحداث.

الاستدراك بـ (وَلَٰكِنَّ) لرفع توهم أنّ الناس يدركون السنن الإلهية بمجرد رؤية الأحداث المادية السطحية.

يصوب محمد قطب – رحمه الله - البوصلة هنا نحو "مفهوم العلم"، فالآية تنفي العلم الحقيقي عن أكثر الناس بالرغم من ذكائهم الدنيوي؛ لأنّ العلم الذي لا يربط الأسباب بمسبباتها (الله) هو قشور علم، وليس علماً حقيقياً بمآلات السنن الكونية.

*(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ): (يَعْلَمُونَ): فعل مضارع والواو فاعل، وهي بدل من (لَا يَعْلَمُونَ) السابقة بدل بيان أو تفسير. (ظَاهِرًا): مفعول به منصوب، (وَهُمْ): الواو حالية أو استئنافية، (هم) مبتدأ أول. (عَنِ الْآخِرَةِ): متعلق بـ (غَافِلُونَ). (هُمْ): ضمير منفصل تكرر لتوكيد المبتدأ، (غَافِلُونَ): خبر المبتدأ (هم) الأول.

الإشراقة البلاغية: تنكير (ظَاهِرًا)، فقد نفى عنهم العلم، ثم أثبت لهم علما ظاهرا من الحياة الدنيا، قال (ظاهراً) لتقليل شأن هذا العلم وتزهيده؛ أي يعلمون نزراً يسيراً أو قشرة سطحية فقط.

تكرار الضمير (هُمْ)، (وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ): يفيد التخصيص والتوكيد الشديد، كأن الغفلة تملكتهم وصارت جزءاً من هويتهم النفسية.

يقف ابن عاشور – رحمه الله - مع كلمة {ظَاهِرًا} معتبراً إياها من روائع التقسيم المعرفي. فالإنسان المادي يرى حركة الجيش، السلاح، الاقتصاد (الظاهر)، ولكنه يغفل عن "الباطن" وهو مشيئة الله وسننه في الطغيان والعدل.

ويرى سيد قطب – رحمه الله - هنا تصويراً عجيباً لجهد البشر المعاصر الذي يبدو جباراً في التكنولوجيا والعلوم المادية، ولكنه يقف طفلاً جاهلاً عاجزاً أمام الغيب والآخرة.

*(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ)

(أَوَلَمْ): الهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي، والواو عاطفة (على مقدّر يقدره السياق)، و(لم) جازمة ونفْي وقلْب. (يَتَفَكَّرُوا): مضارع مجزوم بحذف النون. (مَّا خَلَقَ... إِلَّا بِالْحَقِّ): أسلوب قصر وسيلة النفي (ما) والاستثناء (إلاّ). {بِالْحَقِّ}: جار ومجرور في محل نصب حال من الفاعل أو المفعول (أي ملتبسة بالحق).

الإشراقة البلاغية: الاستفهام الإنكاري (أَوَلَمْ) له صدارة الكلام، وهو يهزّ الوجدان الإنساني الغافل.

تقديم (فِي أَنفُسِهِم)؛ لأنّ التفكر في النفس هو أقرب وأعمق طرق المعرفة قبل الانطلاق لآفاق السماوات والأرض.

يربط ابن القيم – رحمه الله - هنا بين (الحق) و(الأجل المسمى). فالحق هو الحكمة التي بُني عليها الكون (وليس العبث)، والأجل المسمى هو القيامة والزوال الدنيوي. فكل بناء في الدنيا له غاية (الحق) ونهاية (الأجل). كيف يغفلون عن الآخرة والكون كله ناطق بأن لكل شيء نهاية؟

*(أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

(فَيَنظُرُوا): الفاء عاطفة أو سببية، وينظروا معطوف على (يسيروا) مجزوم مثله، (كَيْفَ): اسم استفهام مبني في محل نصب خبر (كان) مقدم، (عَاقِبَةُ): اسم كان مؤخر، (أَثَارُوا): فعل ماض والواو فاعل، والإثارة في اللغة: التقليب والحرث واستخراج الكنوز.

الإشراقة البلاغية: التفصيل بعد الإجمال ومراعاة النظير البصري والتاريخي: الانتقال من التأمل الداخلي النفسي (ي أَنفُسِهِم) في الآية السابقة، إلى التأمل الخارجي المشهود (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ).

المقابلة الضمنية بين قوة قريش المحدودة وقوة الأمم السابقة (عاد وثمود والفراعنة) الذين (أَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا).

يستلهم البقاعي – رحمه الله - من قوله تعالى: (أَثَارُوا الْأَرْضَ) لفتة دقيقة؛ فالإثارة تشمل حفر القنوات، وبناء السدود، واستخراج المعادن، والزراعة؛ أي أنهم وصلوا لقمة "الحضارة المادية والتكنولوجية" بمقاييس زمانهم، ومع ذلك لم تحمهم قوتهم المادية من السقوط المروع لما كذبوا برسلهم. (فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ).

*(ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ): جملة (ثم كان عاقبة) معطوفة على جملة «ما كان الله ليظلمهم» ، «السوءى» اسم كان، «أن» مصدرية، والمصدر المؤول على نزع الخافض اللام، الجار «بها» متعلق بـ «يستهزئون» .

وَمَنْ نَصَبَ جَعْلَهَا خَبَرَ كَانَ، وَفِي الِاسْمِ وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا: «السُّوأَى» وَالْآخَرُ: «أَنْ كَذَّبُوا» عَلَى مَا تَقَدَّمَ. وَيَجُوزُ أَنْ يَجْعَلَ أَنْ «كَذَّبُوا» بَدَلًا مِنَ السُّوأَى، أَوْ خَبَرَ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ.

الإشراقة البلاغية: الترتيب والتعقيب بـ {ثُمَّ}: لإفادة المهلة، فالله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

التكرار المعنوي والجناسي المحسّن بين (أَسَاءُوا) و(السُّوأَىٰ) لربط نوع الجزاء بنوع العمل (الجزاء من جنس العمل).

هنا لفتة نفسية وسلوكية بالغة الخطورة يركز عليها ابن تيمية -رحمه الله -: الخطايا يجرّ بعضها بعضاً. بدأت الآية بـ (أَسَاءُوا) (عمل السيئات)، فأنزلهم الله إلى مرتبة (أَن كَذَّبُوا)، ثم انحدروا إلى (يَسْتَهْزِئُونَ)، فالمعاصي بريد الكفر، والاستهزاء هو ذروة العقاب النفسي والانتكاس الفطري.

الحسم المشهدي لليوم الآخر: *(اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (11) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (12) وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (13) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (14))

*(اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) أي: يخلقهم ابتداءً ثم يعيدهم بعد الموت، لم يقل (يعيدهم)، وإنما رد الضمير إلى الخلق، ثم جاء الالتفات (ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) فيجزيكم بأعمالكم.

*(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ)، (يُبْلِسُ): فعل مضارع مرفوع، والفاعلون مجرمون. قال قتادة والكلبي: ييأس المشركون من كل خير، ومنه اشتُق اسم (إبليس)، و(شُفَعَاءُ): اسم (يكن) مؤخر مرفوع بالضمة ولم ينون لأنه ممنوع من الصرف (ألف التأنيث الممدودة). (يَوْمَئِذٍ): (يومَ) ظرف مضاف إلى (إذٍ) وهي تنوين عوض عن جملة محذوفة تقديرها (يوم إذ تقوم الساعة).

الإشراقة البلاغية: المعادلة العقلية الموجزة: (يَبْدَأُ... ثُمَّ يُعِيدُهُ). البدء دليل القدرة على الإعادة؛ أهون في مقاييسكم البديهية.

التكرار اللفظي المشهدي الترويعي: (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ) في آيتين متقاربتين لإثبات المفاجأة والرهبة النفسية.

أمّا الإيجاز والقطع الحاسم ففي قوله سبحانه: (تَفَرَّقُونَ)، كلمة واحدة تختصر زلزال العلاقات البشرية الكافرة؛ انقطاع الأنساب والروابط والشركاء في ثانية واحدة.

يرسم سيد قطب – رحمه الله - هنا بكلماته الشهيرة الحركة التصويرية في القرآن: "نحن أمام مشهد كامل. المجرم واقف مبلس (يائس، واجم، منقطع الحجة)، الشركاء يتبرؤون، والجمع البشري الضخم يُفرز ويُوزع ويتفرق".

المقصد هنا هو ضرب الأمل الكاذب للمشركين الذين ظنوا أنّ آلهتهم أو مكانتهم الدنيوية ستشفع لهم.

المآل النهائي والمقابلة العظمى: *(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (15) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (16))

(فَأَمَّا... فَهُمْ): (أمّا) حرف شرط وتفصيل وتوكيد، والربط بالفاء في جوابها لازم. (يُحْبَرُونَ): فعل مضارع مبني لما لم يسم فاعله، مرفوع بثبوت النون، والواو نائب فاعل، و(الحَبْرة أو الحبور) في اللغة هي: المبالغة في السرور والنعمة والإكرام والتهلل الذي تظهر آثاره على الوجه.

يقابلها في الفريق الآخر (مُحْضَرُونَ): اسم مفعول من (أحضر)، وفيه معنى الإلزام والقهر (مكبّلون مَسوقون).

الإشراقة البلاغية: المقابلة التامة البديعة: بين صفات الفريقين، ومآلهما وطريقة عيشهما في الآخرة.

الاختيار اللغوي المعجز في الأوعية الجغرافية للمآل: للمؤمنين: {فِي رَوْضَةٍ} بما تحمله الروضة من ظلال، ماء، خضرة، وطمأنينة نفسية.

للكافرين: (فِي الْعَذَابِ) جعل العذاب كأنه وعاء ومكان وظرف مغلق يحيط بهم من كل جانب فلا فكاك منه.

المقابلة الدلالية بين الأفعال: المؤمنون (يُحْبَرُونَ) (الفعل منسوب لتكريمهم وسرورهم المطلق طواعية)، بينما الكافرون (مُحْضَرُونَ) (صيغة اسم مفعول تدل على الذل والقهر والجذب قسراً إلى العذاب).

يختم ابن عاشور – رحمه الله - هذا الدرس بالإشارة إلى المقصد الأسمى من هذا التفصيل: بعد أن بدأت السورة بحدث سياسي أرضي (صراع الروم والفرس وما صاحبه من حزن للمؤمنين وفرح للمشركين)، نقل القرآن البشرية إلى الصراع الأكبر والميزان الحقيقي؛ ميزان الإيمان والكفر، فالانتصارات والهزائم الدنيوية عارضة و«ظاهر من الحياة الدنيا»، أما المستقر الحقيقي والتفرق الحقيقي والانتصار الفعلي فهو ما يحدث في هاتين الآيتين.

هكذا بدأت الآيات بـ حدث سياسي محلي عابر (هزيمة الروم)، لترتقي بالمسلم إلى رؤية كونية واسعة (لله الأمر من قبل ومن بعد)، ثم تذم العقل المادي السطحي (يعلمون ظاهراً)، وتدعوه إلى التأمل والعمق (أولم يتفكروا)، (أولم يسيروا)، لتصل به في النهاية إلى الحقيقة المطلقة التي لا تتبدل (الجنة والنار، الحبور والإحضار). فسبحان من نَظَم هذا الكلام البليغ وأعجز به العالمين.

*(فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (18) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (19) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (20) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (21) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (22) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (23) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(24) وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ (25) وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (26) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(27))

هذه الآيات في هذا الدرس من سورة الروم تُمثّل "قِلادة العجائب" في القرآن الكريم؛ حيث تتجاور فيها المشاهد الكونية والنفسية والاجتماعية في نسق بياني باهر.

*(فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ): السياق والمقصد: تأتي الفاء عاطفة فرعية أو فصيحة، تنقل السياق من الحديث عن مصير الفريقين (المؤمنين والمجرمين) في الآيات السابقة، إلى توجيه بوصلة الوجود كله نحو التسبيح. المقصد هنا هو "التوقيت والمداومة"، فالكون كله يتغير بين ليل ونهار، والتسبيح هو الرابط الثابت في هذا المتغير.

الإشراقة البلاغية: تقديم حِينَ تُمْسُونَ على تُصْبِحُونَ. يرى ابن عاشور – رحمه الله - أنّ الليل في لسان العرب هو الأصل (السابق للنهار في الحساب الفلكي القديم)، وهو كلك كما في قوله تعالى ((وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ) [يس:37] وفي هذا إشارة إلى أنّ الأصل في الكون هو الظلمة، والنهار قشرة رقيقة عارضة عليه، وهي لفتة علمية بليغة جداً أشار إليها سيد قطب – رحمه الله (في ظلال القرآن).

بينما يرى البقاعي – رحمه الله - في "نظم الدرر" لطيفة تناسب سياق السورة؛ فالسورة بدأت بهزيمة الروم (ظلمة ونكسة كالمساء) ثم التبشير بالنصر (فجر وإشراق كالصباح).

الأفعال تُمْسُونَ وتُصْبِحُونَ هنا تامة وليست ناقصة. أي: حين تدخلون في وقت المساء والصباح، والواو فاعل. هذه الوجازة النحوية تحول الفعل من مجرد رابط زمني إلى "حركة وجودية" وانتقال كوني.

*(وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ)، السياق والمقصد: اعتراض مدحي لبيان أن الثناء مستغرق للكون مكاناً وزماناً.

الإشراقة البلاغية: تقديم الجار والمجرور وَلَهُ الْحَمْدُ يفيد الحصر والقصْر، أي: له وحده لا لغيره. وفي المقابلة الزمنية: قابل بين عَشِيًّا (وهو اسم زمان جامد) وبين حِينَ تُظْهِرُونَ (وهو جملة فعلية). هذا التناوب بين الجمود والحركة في الألفاظ يطرد الرتابة عن السمع وينبه الوعي.

ملمح تفسيري: يشير ابن القيم – رحمه الله - في "بدائع الفوائد" إلى أن هذه الآية والآية التي قبلها جمعت أوقات الصلاة المفروضة الخمسة (المساء: المغرب والعشاء، الصباح: الفجر، العشي: العصر، الإظهار: الظهر)، فالتسبيح والحمد هنا هما جوهر الصلاة وعمادها الروحي.

*(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ)

السياق والمقصد: الانتقال من تنزيه الله وحمده الزمني، إلى إثبات قدرته بالدليل المشاهد (البعث والنشور)، وهو المقصد المحوري لسورة الروم.

الإشراقة البلاغية: استعمال المضارع يُخْرِجُ ويُحْيِي يفيد التجدد والاستمرار؛ فالإخراج والإحياء حركة لا تتوقف في الكون (النبات من النواة، فرخ الدجاج من البيضة، والمؤمن من الكافر).

إشراقة بلاغية في خاتمة الآية: قوله (وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ): هنا التفات خطير؛ بُني الفعل تُخْرَجُونَ لما لم يُسمَّ فاعله لبيان سهولة الأمر، وأنكم تُساقون إلى البعث بقهر القدرة دون مجهود، كما يلمح ابن عاشور – رحمه الله - إلى أنّ اختيار قراءة فتح التاء تَخْرُجُونَ – قراءة حمزة والكسائي - أو ضمها تُخْرَجُونَ – قراءة الجمهور - كلاهما يخدم فكرة الانبعاث الذاتي كالنبات أو الإخراج القسري.

*(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ)، السياق والمقصد: بدء سلسلة "آيات الوجود" المصدرة بـ وَمِنْ آيَاتِهِ. وبدأ بالإنسان لأنه أقرب آية إليه.

الإشراقة البلاغية: الفجوة الهائلة بين المبدأ والمنتهى! التراب (جماد، ساكن، رخيص) مقابل البشر (متحرك، واعي، عاقل). وقد عبر عن هذه الفجوة بحرف التراخي ثُمَّ متبوعاً بـ إِذَا الفجائية.

(إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ): دخلت "إذا الفجائية" على الجملة الاسمية، وهي تفيد حدوث الشيء بغتة وبلا مقدمات تدرجية في نظر الرائي. وجاء الفعل (تَنتَشِرُونَ) بصيغة المفاعلة والامتداد ليرسم مشهد الحركة والسعي على الأرض بعد الخمول الترابي.

*(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ).

السياق والمقصد: انتقال من خلق الذات الإنسانية إلى خلق العلاقات الاجتماعية العاطفية التي تحفظ هذا الوجود وتمنحه السكينة.

الإشراقة البلاغية: قوله سبحانه: (خلق لَكُمْ): اللام في (لكم) هنا تفيد التكرمة والامتنان (لأجل مصلحتكم وراحتكم).

قوله (مِّنْ أَنفُسِكُمْ): تفيد المجانسة والالتحام النفسي، فليس هناك وحشة بين الجنسين.

تعدية الفعل بـ (إِلَيْهَا) وليس (عندها). في لسان العرب: سكن إليه يفيد الطمأنينة النفسية والانتماء، أما سكن عنده فيفيد السكون الفيزيائي الجسدي فقط.

ملمح تفسيري: (في ظلال القرآن) يقف سيد قطب – رحمه الله - عند قول الله تعالى: (مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً) ليرى أن هذا الرباط الخفي هو من صنع يد الله، وليس مجرد غريزة حيوانية، بل هو ستر نفسي يحمي الخلية الأولى للمجتمع، ثم ختمت الآية بـ (لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) لأن أمر العاطفة والارتباط يحتاج لعمق نظر وفكر.

*(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ)

السياق والمقصد: الخروج من دائرة الأسرة الضيقة إلى فضاء الكون الواسع والمجتمع البشري العالمي.

الإشراقة البلاغية: الجمع بين الأكبر (السموات والأرض) والأصغر (اللسان والجلد). واختلاف الألسنة ليس فقط اللغات، بل النبرات ومخارج الحروف التي تجعل لكل إنسان بصمة صوتية، وكذلك الألوان. هذا التنوع الهائل مع اتحاد الأصل (التراب) هو ذروة الإعجاز.

اللمحة النحوية والبلاغية الخاتمة: خُتمت الآية بـ (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ) (بفتح اللام أو كسرها). فبالفتح: العالَمين (الكون بكل ما فيه)، وبالكسر: العالِمين (أصحاب العلم والجيولوجيا والأنثروبولوجيا) لأن دراسة اللغات والألوان تحتاج إلى أدوات علمية وبحثية.

*(وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)

السياق والمقصد: تدبير المعاش اليومي وحاجة الجسد والنفس إلى التوازن بين الحركة والسكون.

الإشراقة البلاغية (الاحتباك والنشر المرتب): هذه الآية معركة بلاغية لأهل النظم. فقد لفّ ووزع؛ والتقدير الأصلي: (منامكم بالليل، وابتغاؤكم من فضله بالنهار)، ولكنه جمع الزمانين بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بين الحدثين مَنَامُكُم وابْتِغَاؤُكُم ليدل على أن النوم قد يقع بالنهار والطلب قد يقع بالليل، وهذا من مرونة الحياة البهية.

الخاتمة المقاصدية: ختم بـ (لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)؛ لأن النوم والسكون والابتغاء يعتمدان على التنبّه العضوي، والنوم يقترن بحاسة السمع التي لا تنام (وهي الحاسة التي تبقى مستيقظة لحماية النائم).

*(وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

السياق والمقصد: آية الانفعال الكوني والنفسي والمادي (الماء، الخوف، الرجاء).

الإشراقة البلاغية: قوله (خَوْفًا وَطَمَعًا): مفعول لأجله، أو حال (أي خائفين وطامعين). هذا التقابل الوجداني (الخوف من الصواعق، والطمع في المطر) يعكس تقلبات النفس البشرية أمام الظواهر الكونية.

قوله (يُرِيكُمُ): صيغة مضارعة تجعل المشهد متجدداً ومتجسداً أمام عيني السامع الآن.

الخاتمة المقاصدية: ختم بـ (لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) لأن الربط بين البرق الومضي، ونزول المطر، ثم إحياء الأرض بعد موتها، هي "سلسلة سببية" منطقية تحتاج إلى عقل يربط الأسباب بمسبباتها ولا يمر عليها مرور العابرين.

عن عائشة رضي الله عنها قال: كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا رَأى مَخيلةً في السَّماءِ أقبَلَ وأدبَرَ، ودَخَلَ وخَرَجَ، وتَغَيَّرَ وجهُهُ، فإذا أمطَرَتِ السَّماءُ سُرِّيَ عنه،

فعَرَّفَته عائِشةُ ذلك، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ما أدري لَعَلَّه كما قال قَومٌ: (فلَمَّا رَأوه عارِضًا مُستَقبِلَ أوديَتِهم) [الأحقاف:24] [1].

وفي رواية عنها رضي الله عنها: كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا رأى مَخيلةً تلوَّن وجهُه وتغيَّر ودخل وخرج وأقبل وأدبر فإذا أمطرت سُرِّي عنه قال فذكرتْ له عائشةُ بعضَ ما رأت منه فقال وما يُدريك لعلَّه كما قال قومُ هودٍ (فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ) [2].

فكان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ دائِمَ الخَوفِ مِنَ اللهِ تعالَى، ودائمَ الخَوفِ على أُمَّتِه أنْ يُصيبَها عَذابٌ بسَبَبِ ذُنوبِ المُذنِبينَ.

*(وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ)

السياق والمقصد: هذه الآية هي سقف "الآيات المشهودة"؛ قيام الكون بنظامه الحالي، ثم لحظة هدم هذا النظام بـ "الدعوة" والبعث.

الإشراقة البلاغية: استعمال الفعل (تَقُومَ) يفيد الثبات والاستقرار المدهش للأجرام الضخمة في الفضاء بدون عمد مرئية، وهذا كله معلق بكلمة واحدة: (بِأَمْرِهِ).

قوله تعالى: (دَعَاكُمْ دَعْوَةً): يفيد التنكير هنا التعظيم والسرعة، هي صيغة المرة الواحدة؛ صيحة واحدة فإذا بالجميع قيام ينظرون.

تكرار "إذا" مرتين: (ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دعوة من الأرض إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ) الأولى شرطية زمانية، والثانية فجائية رابطة لجواب الشرط. هذا التراكب النحوي يعطي إيقاعاً سريعاً وحاسماً للمشهد؛ بمجرد صدور الصوت، يحدث الخروج فجأة دون أي تراخٍ، استجابة لأمر الله.

*(وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ)، السياق والمقصد: إعلان الملكية العامة والمطلقة للوجود بعد استعراض تفاصيله.

الإشراقة البلاغية: استعمال (مَنْ) المفيدة للعاقل، تغليباً لشرف العقلاء من الملائكة والإنس والجن في مقام العبودية، أو يقال كل عبادته وتسبيحه لله بحسبة، كما أنّ تقديم الخبر (وَلَهُ) للحصر والملك التام.

يوضح شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – أنّ قوله سبحانه: (قَانِتُونَ) هنا لها معنيان: القنوت الشرعي (الطاعة الاختيارية للمؤمنين)، والقنوت الكوني القدري

---

1 - أخرجه البخاري (3206)، ومسلم(899)

2 - أخرجه ابن ماجه (3891) بلفظه، والبخاري (3206)، والترمذي (3257) كلاهما باختلاف يسير.

(الخضوع الاضطراري لسنن الله من كافر ومؤمن، جماد وحي). فالكل منقاد لأمره التكويني لا يستطيع أحد الخروج عن قضاء الله وقدره.

*(وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

السياق والمقصد: خاتمة المقاصد وخلاصة المحاججة العقلية مع منكري البعث.

الأشراقة البلاغية (مخاطبة العقل البشري): قوله تعالى: (وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْه) هنا إشكال بلاغي؛ فالله لا يصعب عليه شيء حتى يكون هناك شيء "أهون" من شيء. ولذلك تضافرت عقول المفسرين (ابن عاشور والبقاعي) وغيرهما - رحمهم الله - على أن "أهون" هنا جاءت بناءً على قياس عقول المخاطبين وبحسب متعارفهم. فالبشر في تجاربهم يرون أن إعادة بناء الشيء أسهل من ابتكاره أول مرة، فالقرآن يحجهم بمنطقهم وعقولهم.

قوله تعالى: (وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ). المثل الأعلى هو الوصف الأكمل، والصفات النورانية التي لا تشبه صفات المخلوقين، قال ابن عباس: هي أنه ليس كمثله شيء، وقال قتادة: هي أنه لا إله إلا هو.

التذييل بالأسماء الحسنى: ختم بـ (الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)؛ العزيز (القدرة المطلقة التي تبدأ وتعيد دون ممانع)، الحكيم (الذي وضع لكل هذا الخلق غاية ومقصد، فلن يترك البشر سدى بلا بعث ولا حساب).

إذا تأملت هذا النص القرآني المتتابع لوجدت أنه يمشى في خطين متوازيين متلاحمين:

حركة الكون المادي العريض: (سموات، أرض، ليل، نهار، تراب، برق، مطر).

حركة النفس والمجتمع: (مستور عاطفي، لغات، ألوان، نوم، يقظة، خوف، طمع).

إنها صياغة إلهية تُشعر الإنسان بمدى اتصال خلايا جسده ونبضات قلبه بهذا الكون الفسيح، وكلها خاضعة لمره جل وتعالى، مما يجعل النتيجة المنطقية الحتمية: الاستسلام والحمد لله أولاً وآخراً.

*(ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (28) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (29) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ

لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (30) ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (31) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ(32) وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (33) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (34) أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (35) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (36) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(37))

هذه الآيات في هذا الدرس من سورة الروم هي ذروة المحاجة القرآنية للعقل البشري، والانتقال به من ضيق الشرك وتقلبات النفس الإنسانية إلى سعة الفطرة التوحيدية المستقرة.

*(ضرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

يرى ابن عاشور – رحمه الله - أنّ هذا المثل هو "قياس مساوٍ" تهكمي؛ فالله يقرّع مشركي مكة بوعيهم الاجتماعي؛ كيف تأنفون أن يكون عبيدكم شركاء لكم في أموالكم، ثم تجعلون لله (وهو المالك المطلق) شركاء من عبيده؟! أما سيد قطب – رحمه الله - فيرى أن الآية تنفض عن العقل غبار الوهم بضرب مثل واقعي مشهود من حياتهم اليومية.

إشراقة بلاغية: الاستفهام الإنكاري: (هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ) يفيد النفي القاطع بأسلوب تقريري إلزامي، وكذا الطباق: بين (مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم) (مملوكين) وبين (شُرَكَاءَ) (مساوين).

أمّا التشبيه في قوله سبحانه: (تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ) فهو تشبيه لهيئة الخوف والتحرز من الشريك الحر، وهو التفات فسيولوجي عجيب في تصوير القلق البشري من الشراكة.

(مَثَلًا) مفعول به لـ (ضَرَبَ)، وجملة (هَل لَّكُم مما ملكت أيمانكم) مستأنفة بيانية تفسر المثل. و(سَوَاءٌ) خبر مبتدأ محذوف (فأنتم وهم سواء)، ووقوع الفاء في (فَأَنتُمْ) لترتيب ما بعدها على الاستفهامية الإلزامية.

المقصد: هدم صنم الشرك عقلياً ونفسياً من خلال منظومة القيم الاجتماعية التي يتبناها المخاطب نفسه.

*(بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ)

ينتقل السياق هنا بـ (بَل) الإضرابية لبيان العلة الحقيقية للشرك بعد دحض الشبهة عقلياً. يذكر ابن تيمية – رحمه الله - هنا أن الشرك ليس له مستند علمي قط، وإنما هو محض "هوى" (نفسي أو مصلحي) يعمي عن الحق.

الإشراقة البلاغية: العدول عن الضمير إلى الاسم الظاهر: (بل اتبع الَّذِينَ ظَلَمُوا) بدل (بل اتبعوا) لتسجيل وصف "الظلم" (الذي هو وضع الشيء في غير موضعه) عليهم كعلة لاتباع الهوى.

وكذا الاستفهام الإنكاري المتضمن معنى النفي: (فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ)، أي: لا هادي له؛ لأن الله أضله جزاء اتّباعه الهوى وإعراضه عن الدليل.

(بَلْ): حرف إضراب أبطالي، (بِغَيْرِ عِلْمٍ) جار ومجرور في موضع نصب حال من الفاعل، أي: اتباعاً متلبساً بالجهل التام، (وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ)، مِن هنا لاستغراق النفي (زائدة إعراباً، مؤكِدة بلاغةً)، ونَّاصِرِينَ مجرور لفظاً مرفوع محلاً على أنه مبتدأ مؤخر.

المقصد: كشف الدوافع النفسية خلف الكفر؛ فهو ليس قلة أدلة، بل غلبة شهوة وأهواء.

*(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

هذه الآية هي واسطة العقد في السورة. يتأمل ابن القيم – رحمه الله - معنى الفطرة هنا فيقول: "الفطرة هي تهيؤ النفس وقبولها ومحبتها للتوحيد والشرع؛ كتهيؤ العين للضوء والأذن للصوت". ويضيف محمد قطب – رحمه الله - أنّ هذا التوجيه في قوله تعالى: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ) يقتضي التركيز الكامل وتوجيه الكيان كله للحق دون التفاف.

الإشراقة البلاغية: ما يسميه البلاغيون: الاستعارة التمثيلية: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ) تمثيل لإخلاص القصد وتوجه الكيان الإنساني بالكلية نحو الدين، كمن ينظر إلى هدف مستقيم لا يحيد عنه يمنة ولا يسرة.

الاعتراض: جملة (فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) جاءت معترضة لبيان أنّ هذا الدين ليس غريباً عن التكوين الإنساني، بل هو صِنوه.

قوله سبحانه: (حَنِيفًا): حال منصوبة من "الدين" أو من الكاف في "وجهك". (فِطْرَتَ) منصوبة على الإغراء (أي: الزم فطرة الله)، أو مفعول مطلق لفعل محذوف دل عليه قوله سبحانه: (فَأَقِمْ) (أي: فطر الله فطرةً). (لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ): جملة نافية للجنس تفيد الإخبار بكون الفطرة باقية في أصل التكوين، وتتضمن معنى النهي (أي: لا تبدلوا فطرة الله).

المقصد: التأصيل لمركزية التوحيد الكوني؛ فالإسلام متسق التكوين مع هندسة النفس البشرية.

*(۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ): يلاحظ البقاعي – رحمه الله - في تفسيره "نظم الدرر" التناسب بين "الفطرة" و"الإنابة"؛ فالإنابة هي الرجوع، والرجوع لا يكون إلا إلى أصل مستقر (وهو الفطرة). وأمّا الصلاة هنا فهي الحبل الواصل المستمر لحماية هذه الفطرة من الانحراف.

الإشراقة البلاغية: الالتفات: من الخطاب المفرد للنبي ﷺ في الآية السابقة (فَأَقِمْ) إلى خطاب الجماعة (الأمة) في قوله سبحانه (مُنِيبِينَ إليه وَاتَّقُوهُ) للإشارة إلى أن الخطاب للرسول هو خطاب لأمته تبعاً له.

(مُنِيبِينَ) حال من الضمير المستتر في فعل الأمر (فَأَقِمْ) باعتبار المراد به الأمة، أو حال من فاعل فعل محذوف (أي: أقيموا وجوهكم منيبين). وجملة (وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) معطوفة على الأمر للتحذير من النكوص.

المقصد: رسم الخارطة العملية للحفاظ على الفطرة: الإنابة (قلبياً)، التقوى (سلوكياً)، الصلاة (شعائرياً).

*(مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ): يصف سيد قطب – رحمه الله - هذا المشهد بدقة عالية؛ فالفرقة والتحزب تجعل الأفق ضيقاً، حيث يتقوقع كل حزب داخل شرنقته الفكرية معجباً بذاته. هذا التفرق هو النتيجة الحتمية لمفارقة الفطرة الواحدة الجامعة.

الإشراقة البلاغية: القصر والحصر بالاهتمام: (كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) تصوير بليغ لحالة "الغرور الأيديولوجي" والتعصب الأعمى، حيث صار الفرح والرضا مرتبطاً بما عند الحزب لا بالحق المطلق.

(مِنَ الَّذِينَ) بدل بإعادة الجار من قوله تعالى (مِنَ الْمُشْرِكِينَ) في الآية السابقة لتفسير نوع المشركين المراد التحذير منهم. (فَرِحُونَ): صيغة مبالغة تدل على ملازمة الفرح والاعتداد بالذات.

المقصد: ذم التعصب والفرقة كونهما مظهرين من مظاهر الشرك والبعد عن سماحة الفطرة وحنيفية الدين.

*(وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ)

هنا تشريح قرآني عجيب للاضطراب النفسي البشري. يرى ابن القيم – رحمه الله - أنّ الشدائد تعيد الإنسان إلى فطرته غصباً عنه، لأن الأسباب تسقط فلا يبقى إلاّ المسبب، فإذا زال الخطر، عادت الأهواء لتغطي على الفطرة من جديد.

الإشراقة البلاغية: المجاز والاتساع: استعمال لفظ (مَسَّ) مع (ضُرٌّ) للدلالة على أن أدنى قليل من الأذى كافٍ لإيقاظ الفطرة النائمة، واستعمال كلمة (أَذَاقَهُم) مع كلمة (رَحْمَةً) لتصوير حلاوة النعمة ولذتها الفورية على النفس.

المفاجأة: وقوع إِذَا الفجائية في جواب الشرط (إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ) لتصوير السرعة الغريبة وغير المنطقية في الانقلاب من التوحيد الخالص تحت الضغط إلى الشرك عند الرخاء.

إِذَا الأولى شرطية زمنية، بينما إِذَا الثالثة هي "إذا الفجائية" التي ربطت جواب الشرط وجاء بعدها جملة اسمية (فَرِيقٌ... يُشْرِكُونَ) للدلالة على ثبوت الشرك وسرعة تبديهم به.

المقصد: بيان تقلب النفس الإنسانية غير المتربية على الفطرة المستقرة، وفضح نكران الجميل.

*(لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ): يعلق ابن عاشور – رحمه الله - أنّ اللام هنا ليست للتعليل الحقيقي الحافز، بل هي "لام العاقبة والصيرورة"، أي أنّ مآل شركهم المفاجئ هو كفران النعمة. وجاء التهديد بـ (فَتَمَتَّعُوا) ليقطع عليهم لذة هذا المتاع الزائل.

الإشراقة البلاغية: الأمر المراد به التهديد والوعيد: (فَتَمَتَّعُوا) صيغة أمر بلاغية خرجت عن حقيقتها إلى معنى التهديد الشديد الخالي من أي إذن أو إباحة، ومثله في القرآن قوله تعالى: (اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)، في قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) [فصلت:40].

الإيجاز بالحذف المروع: (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) حذف مفعول "تعلمون" لتذهب نفس السامع في تقدير العقاب كل مذهب مخيف.

(لِيَكْفُرُوا): اللام لام العاقبة، أي لبيان الأمر ومصيره، والفعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام. الجمل المقترنة بالفاء (فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ) استئنافية توبيخية.

المقصد: حسم الموقف وبث الرعب والتهديد في قلوب المعرضين المنغمسين في ترف المتاع الزائل.

*(أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ): يعود السياق للمحاكمة العقلية الصارمة. يوضح ابن تيمية – رحمه الله - هنا مفهوماً هاماً؛ وهو أن "السلطان" في القرآن هو الحجة والبرهان العلمي والمنهجي. فالله يتحدى المشركين: هل لديكم أي دليل مكتوب أو وحي ينطق بصحة شرككم؟

الإشراقة البلاغية: ما يسميه البلاغيون: استعارة مكنية في قوله تعالى (فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ) حيث شُبّه البرهان أو الكتاب المكتوب بإنسان متكلم ينطق بالحجة، وهذا من أبلغ التشنيع عليهم؛ لأن الجماد والكتاب لا يتكلم، والمقصود انتفاء الدلالة من أساسها بأسلوب تهكمي.

وهو أسلوب معروف عند العرب كما في قوله تعالى: (هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) [الجاثية:29]، فالعرب تسمى المكتوب منطوقا، والدليل منطقاً، ولو كان مكتوباً، والله أعلم.

(أَمْ) هي المنقطعة التي تقدر بـ "بل والهمزة الاستفهامية الإنكارية". (سُلْطَانًا) مفعول به، وجملة فَهُوَ يَتَكَلَّمُ معطوفة بالفاء السببية التفريعية على (أَنزَلْنَا).

المقصد: إسقاط أي دعوى فكرية أو شرعية للشرك، وحصره في دائرة الوهم والجهل والتقليد.

*(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ)

تتكامل هذه الآية مع آية (وإذا مس) قبلها في رصد ردود الفعل النفسية، ولكن بزاوية أخرى. هنا يرصد القرآن ثنائية: (البطر عند النعمة واليأس عند المصيبة). يرى سيد قطب – رحمه الله - أنّ هذا هو دأب "الإنسان الخاوي من الإيمان"؛ طائر مع الفرح حد الطغيان، ومنكسر مع الابتلاء حد القنوط؛ لأنه مقطوع الصلة بالقدر.

الإشراقة البلاغية: المقابلة البديعية: بين (أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا) وبين (تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ... يَقْنَطُونَ).

السببية: إسناد الرحمة إلى الله مباشرة تعليماً وثقة (أَذَقْنَا) بينما إسناد السيئة إلى كسب أيديهم (بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ) تأكيداً للعدل الإلهي.

أداة الشرط للرحمة كانت (إِذَا) الدالة على الثبوت والتحقق (لأن رحمة الله غامرة وأصل)، بينما أداة الشرط للسيئة كانت (إِنْ) الدالة على القلة والندرة. وجواب الشرط الثاني اقترن بـ إ(ذَا) الفجائية أيضاً (إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ) لتسجيل سرعة وشدة يأسهم المفاجئ.

المقصد: تقويم الميزان النفسي للإنسان، ودعوته للثبات والاتزان في السراء والضراء بناءً على إيمانه بالقدر خيره وشره والذي لمحت إليه الآية بعدها:

*(وَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

الختام الشافي لمرض اليأس والبطر. يربط ابن عاشور – رحمه الله - الرزق بمشيئة الله وحكمته المطلقة لتخليص النفس من ضيق الأسباب المادية. بسط الرزق (توسعته) وقدره (تضييقه) لا علاقة له برضا الله عن العبد أو سخطه، وإنما هو تدبير حكيم وابتلاء.

الإشراقة البلاغية: الطباق: بين يَبْسُطُ (يوسع) ويَقْدِرُ (يضيّق)، والالتفات العقلي: تحويل النظر من النظر النفسي الضيق والمصلحي الذاتي إلى النظر الكوني العريض لتدبير الله في معايش العباد؛ لإيجاد الاستقرار النفسي.

الهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي، والواو للعطف على مقدر أي: (أغفلوا ولم يروا؟)، كما أنّ (أَنَّ) وما بعدها سد مسد مفعولي يَرَوْا (التي هي علمية بصرية تلمح التدبير في الواقع). وجاء التذييل (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) - وهي جملة لا محل لها من الإعراب، لأنها استئنافية-، لأن المؤمنين هم وحدهم المنتفعون بهذه الآيات المشهودة في الكون.

المقصد: ترسيخ الطمأنينة القلبية والتسليم لتدبير الله، وربط حركة الرزق في الحياة بالمنظومة الإيمانية الكبرى لحماية الإنسان من البطر واليأس والتشتت.

*(فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (38) وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (39) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (40) ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(41) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ (42) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (43) مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (45) وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (46) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (47) اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (48) وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (49) فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(50))

هذه الآيات في هذا الدرس قبل الأخير من سورة الروم عبارة عن دفقة شعورية ومعرفية متكاملة، تنقل التالي لكتاب الله والمستمع من تنظيم العلاقات الاجتماعية والمالية المباشرة، إلى آفاق الكون الشاسعة، لتربط حركة المال والفساد في الأرض بحركة الرياح والمطر والسحب، وتصل في النهاية إلى الحقيقة الكبرى: البعث والنشور.

*(فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

جاءت الفاء (فآتِ) سببية عاطفة على ما قبلها؛ فبعد أن قررت الآية السابقة أنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، أمر الغني الذي بسط الله له الرزق ألا يطغى، بل يلتفت إلى المحتاجين. والمقصد هنا هو التكافل الاجتماعي لتطهير المجتمع من الطبقية.

الإشراقة البلاغية: إضافة الحق للمستحق: (حَقَّهُ)، لم يقرر الله هنا أنها "صَدَقة" أو "تفضّل"، بل هو حقٌّ واجب للمحتاج في مال الغني.

كما أنّ في التقديم والتأخير سرٌّ، حيث قدّم (ذَا الْقُرْبَىٰ) تعظيماً لصلة الرحم، فالأقربون أولى بالمعروف.

تفيد (أل) في (المساكين) [استغراق الجنس] وشمول جميع أفراد هذا الجنس، وهو ما يُعرف بـ (أل الاستغراقية)، وتتحقق هذه الإفادة في الآيات القرآنية وفق القواعد التالية:

إفادة الشمول: تدخل (أل) على اسم الجنس لتستوعب جميع أفراد هذا الاسم، فتدل على "كل" مسكين و"كل" ابن سبيل.

الضابط اللغوي: تُختبر (أل) الاستغراقية بأن يصح وضع كلمة (كل) مكانها فيستقيم المعنى. فالمقصود في الآيات هو: إعطاء الحق لكل مسكين وكل ابن سبيل من أفراد هذين الجنسين.

وأن يصح استثناء البعض: فصحة الاستثناء من مدخولها دليل على عموميتها، كأن يُقال في مواضع أخرى: "إلا صنفاً كذا.

يشير ابن عاشور – رحمه الله – إلى قوله تعالى: (ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ۖ)، أنّ التعبير بـ {إرادة وجه الله} فيه قصر حقيقي للمخلصين، وأنّ الالتفات من الخطاب إلى الغيبة (وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) لرفع مكانتهم وتوجيه الثناء عليهم في ملأ أعلى.

كما يؤكد سيد قطب – رحمه الله - أنّ هذا التشريع مكي، مما يدل على أن التكافل الاجتماعي ركيزة عقائدية أصيلة في الإسلام وليس مجرد تنظيم مدني طارئ في المدينة.

ملاحظة: الزكاة فرضت بمكة إجمالاّ ثم جاء تفصيل أحكامها ومقاديرها وما تخرج منه في السنة الثانية من الهجرة.

*(وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ)

المقصد: المقارنة الصارخة بين اقتصادين: اقتصاد ربوي يقوم على الجشع الشكلي، واقتصاد زكوي يقوم على العطاء الإيماني.

الإشراقة البلاغية والنحوية: المشاكلة اللفظية: استعمل القرآن لفظ الربا (الزيادة في اللغة) في مقابل الزكاة (التي تعني النماء أيضاً)، ليقلب الموازين: ما تظنونه يربو (يزيد) في الدنيا، هو عند الله قاحل (فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ)، حتى في الدنيا نماؤه يعتريه الوهم: (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ) [البقرة:276].

قال الله تعالى: (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ۚ) [البقرة:275].

وقد اختلف المفسرون ما هذا القيام ومتى؟ فقال بعضهم وهم الأكثر: إنهم لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس يعني: كالمصروع، الذي يتخبطه الشيطان، يقوم هؤلاء من قبورهم يوم القيامة كالمصروعين، - والعياذ بالله ـ يشهدهم الناس كلهم، هذا القول قول جمهور المفسرين وهو مروي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

والقول الثاني: لا يقوم يعني في الربا والتعامل به إلا كما يقوم المصروع، لأنهم ـ والعياذ بالله ـ لشدتهم شغفهم للربا كأنما يتصرفون تصرف المتخبط الذي لا يشعر، لأنهم سكارى بمحبة الربا وسكارى بما يربحونه وهم الخاسرون من الربا، فيكون هنا القيام في الدنيا، حيث شبّه تصرفاتهم العشوائية الجنونية المبنية على هذا الربا العظيم الذي يتضخم المال عند الإنسان ظاهراً بالإنسان المصروع الذي لا يعرف كيف يتصرف فيتخبط، وهذا قول كثير من المتأخرين، وقالوا: إن يوم القيامة هنا ليس له ذكر [1].

1 - انظر العثيمين: تفسير القرآن الكريم، تفسير سورة البقرة.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَن تصدَّق بعدل تمرةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ -وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيب- فإنَّ الله يتقبَّلها بيمينه، ثم يُربّيها لصاحبها كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ [1].

النحو: (لِّيَرْبُوَ) اللام لام العاقبة أو التعليل، والفعل منصوب. (فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ) الجملة الاسمية مع ضمير الفصل (هُمُ) تفيد الحصر المؤكد، و"المُضْعِفُون" اسم فاعل من "أضعف" أي دخل في المضاوعة، فهم أصحاب الأضعاف المضاعفة من الأجر.

يوضح ابن القيم – رحمه الله - هنا ميزان القيمة الحقيقي؛ فالربا زيادة مادية مصحوبة بمحق البركة ويؤدي لضيق النفس، بينما الزكاة نقص مادي ظاهر لكنه نماء معنوي ومادي حقيقي ببركة الله.

*(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

المقصد: لفت الانتباه إلى "ربوبية الله" المطلقة، لقطع الطريق على الإشراك به في الأموال أو العبادات.

الإشراقة البلاغية: ترتيب العطف بـ (ثم): {خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ}، أفادت (ثم) التراخي الرتبي والزمني بين هذه المحطات الوجودية الكبرى لتأمل كل مرحلة على حدة.

الاستفهام الإنكاري والتهكمي: (هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ). ودخول (مِن) الاستغراقية ثلاث مرات في الجملة ينفي أقل القليل من القدرة عن آلهتهم.

التنزيه: خُتمت بـ (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) جملة اسمية تفيد الثبوت والدوام للتنزيه المطلق.

*(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ).

المقصد: تقرير قانون "السببية" بين انحراف الإنسان الأخلاقي والروحي، والدمار البيئي والحياتي في الأرض.

الإشراقة البلاغية: المقابلة: بين (الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) لاستيعاب كل مكان في المعمورة.

---

1 - أخرجه البخاري (1410)، ومسلم (1014) باختلاف يسير. والرواية: أخرجها مطولاً الترمذي (662) واللفظ له، وأحمد(10088)

والمجاز المرسل: (بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)، ذكر الأيدي لأنها الآلة الغالبة في الكسب والعمل، والمقصود الإنسان كله.

والتعليل الرحماني لعقوبة الدنيا: (لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)، حيث عبّر بـ (بَعْضَ) من باب الرحمة، فلو آخذهم بكل ما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة، و(لَعَلَّهُمْ) تفيد التعليل والرجاء (بالنظر للمخاطبين) للعودة للحق.

هنا يلتقي البقاعي – رحمه الله - في "نظم الدرر" مع سيد قطب ومحمد قطب – رحمهما الله؛ حيث يوضح البقاعي التناسب التام بين معصية الإنسان واختلال بيئته، ويؤكد محمد قطب في فقه السنن أن الفساد العقدي ينعكس فوراً فساداً سياسياً، واقتصادياً، وبيئياً، والابتلاء هنا ليس للانتقام، بل هو "جرعة علاجية مريرة" لعل البشرية تؤوب.

*(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ)

المقصد: الحث على قراءة التاريخ الإنساني ككتاب مفتوح للسنن الإلهية، وأمّا الإشراقة البلاغية، ففي الأمر بالنظر: (فَانظُرُوا)، والمقصود نظر البصيرة والاعتبار، لا مجرد نظر السائح العابر.

والحصر السببي: (كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ) جملة استئنافية بيانية تعلل سبب دمارهم؛ فجذر الفساد هو الشرك.

*(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ).

المقصد: توجيه البوصلة الفردية والاجتماعية نحو الاستقامة المطلقة قبل فوات الأوان.

الإشراقة البلاغية: ما يسميه البلاغيون استعارة مكنية: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ)، شبّه التوجه النفسي والقلبي الكامل بإقامة الوجه في اتجاه واحد لا يلتفت يمنة ولا يسرة.

والوصف للدين بالثبات: (لِلدِّينِ الْقَيِّمِ) أي المستقيم الذاتي الذي يُقيم شؤون الحياة.

والتهويل: (يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ)، تنكير "يوم" للتهويل، ونفي الجنس بـ (لا) يدل على القطعية المطلقة التي لا استثناء فيها، (وَمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ) أصلها يتصدعون، فأُدغمت التاء في الصاد للدلالة على قوة وقسوة التفرق والتمزق يوم القيامة (فريق في الجنة وفريق في السعير).

وقال في سورة العنكبوت: (وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ) [العنكبوت:25]، وفي سورة الزخرف قال سبحانه: (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) [الزخرف:67].

*(مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ)، المقصد: إقرار المسؤولية الفردية والجزاء العادل.

الإشراقة البلاغية: الايجاز والاتساع: في الكفر قال: (فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ) بالمُفرد والضرر العائد عليه وحده. أما في العمل الصالح فالتفت إلى الجمع: (فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ) إشارة إلى التكافل وبث روح الطمأنينة.

وهنا ما يسميه البلاغيون: الاستعارة التبعية، في قوله تعالى: (يَمْهَدُونَ) مشتقة من المِهد (فراش الصبي)، فشبه الأعمال الصالحة بتمهيد الفراش الوثير وتوطئته لراحة صاحبه عند قدومه للاستقرار في الجنة.

والأعمال الصالحة هي صناعة وإمهاد مساكن الآخرة حقيقة: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لَقِيتُ إبراهيمَ ليلةَ أُسْرِيَ بي، فقال : يا مُحَمَّدُ ! أَقْرِئْ أمتَك مِنِّي السلامَ، وأَخْبِرْهم أن الجنةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ الماءِ، وأنها قِيعانٌ، وأن غِرَاسَها: سبحان اللهِ، والحمدُ للهِ، ولا إله إلا اللهُ، واللهُ أكبرُ[1].

*(لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ)
الإشراقة البلاغية: اللام في (لِيَجْزِيَ) متعلقة بـ "يمهدون" أو "يصدعون"، كما نلاحظ بديع التعبير المقاصدي: مع المؤمنين قال: (مِن فَضْلِهِ)، لأن الأجر لا يوازي النعيم بل هو تفضل من الله، ومع الكافرين قال سبحانه: (إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ)، ولم يقل "يجزيهم بعدله" كراهية لهم وبغضاً لصنيعهم، فنفى المحبة كلياً عنهم.

ثم ينتقل السياق بعد ذلك للمجموع الكونى المعجز (حركة الرياح وإحياء الأرض)، فتنتقل الآيات هنا دفعة واحدة من التهديد بيوم القيامة وفصل الخصوم، إلى لوحة كونية ناطقة بالحياة والجمال لتبرهن بالواقع المشهود (إحياء الأرض بالمطر) على الغائب الموعود (إحياء الموتى).

[حركة الرياح] : تثوير السحاب يؤدي إلى نزول الودق، وذلك يؤدي إلى بهجة العباد وإلى إحياء الأرض بعد موتها.

---

1 - أخرجه الترمذي (3462) واللفظ له، والطبراني (214/10) (10363)، والخطيب في ((تاريخ بغداد)) (292/2) باختلاف يسير، وحسن الألباني إسناده.

*(وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

الإشراقة البلاغية: تقديم الجار والمجرور (وَمِنْ آيَاتِهِ) للاهتمام والحصر الإضافي. أما قوله (مُبَشِّرَاتٍ) فهي حال منصوبة بالكسرة، وصيغة جمع مذكر سالم لغير العاقل هنا جعلت الرياح كائنات حية عاقلة تزف البشرى بالخير والأمل.

النحو المقاصدي: علل إرسال الرياح بأربعة مقاصد مترتبة: نفسي: (مُبَشِّرَاتٍ)، بيولوجي: (وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ)، اقتصادي وتجاري: {وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ} ، وكانت الغاية التعبدية والقلبية الكبرى: (وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ).

*(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ).

ربط السياق بين السنن الكونية (إرسال الرياح لإحياء الأرض) والسنن التاريخية (إرسال الرسل لإحياء القلوب ونصرة المؤمنين).

كما أنّ التقديم والتأخير المعجز: (وَكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)، قَدّم الخبر (حَقّاً) وجار ومجرور التعظيم (عَلَيْنا) على اسم كان المؤخر (نَصْرُ) لإفادة الوجوب الذي أوجبه الله على نفسه تكرماً وفضلاً، ولطمأنة قلب النبي والمؤمنين طمأنينة مطلقة.

*(اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ، وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ)

الرسم السيكولوجي البديع: الفعل المضارع: (يُرْسِلُ)، (فَتُثِيرُ)، (فَيَبْسُطُهُ) يفيد تجدد واستمرار هذه النعمة الكونية أمام الأعين في كل زمان.

أمّا الطباق السيكولوجي العجيب: بين حالتين إنسانيتين متناقضتين تماماً يفصل بينهما مشهد المطر:

حالة الاستبشار: (فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)، (إذا) الأولى شرطية، والثانية فجائية واقترنت بـ (هم) الاسمية للدلالة على التحول الفوري والسريع جداً من الضيق إلى الفرح التام الشامل.

حالة الإبلاس واليأس: (وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ)، تكرار (مِن قَبْلِ) تأكيداً لشدة قنوطهم وضيق نفوسهم قبل المطر، و"المُبْلِس" هو الساكت الحزين المنقطع الرجاء.

*(انظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

ذروة المقصد والخاتمة العظمى: الفاء الفصيحة: (فَانظُرْ) المترتبة على المشاهد السابقة.

كما أنّ تغيير القياس البلاغي: حيث قال (إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ) بدل (إلى المطر) ليرتفع بالنظر من المادة إلى الصفة الإلهية، ومن الأثر إلى المؤثر.

والربط القياسي الإعجازي للبعث: (إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ)، استخدام إنّ المشددة ولام التوكيد المزحلقة في (لَمُحْيِي) لرد إنكار منكري البعث؛ فالذي استطاع تحويل الأرض الهامدة السوداء إلى جنة خضراء تهتز بالحياة، هو ذاته القادر بكلمة (كُنْ) على إعادة الحياة للعظام وهي رميم. (وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

خلاصة: هذه المنظومة من الآيات في هذا الدرس تعيد بناء العقل والوجدان؛ تبدأ من يد الإنسان المنفقة بالحق، مروراً بيده العابثة المفسدة في الأرض، وصولاً ليد الله الرحيمة المبسوطة بالرياح والغيث والبعث. إنها رحلة إيمانية ترشدنا أن صلاح معاشنا واقتصادنا مرتبط بصلاح عقيدتنا، وأن إحياء الأرض بالماء هو التوأم المشهود لإحياء القلوب بالوحي، وإحياء الأجساد يوم النشور.

*(وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (51) فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (52) وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (53) ۞ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (54) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (55) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (56) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (57) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (58) كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (59) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ(60))

هذا المقطع في الدرس الختامي من سورة الروم هو قمة الحصاد وبلوغ الذروة في السورة. فبعد أن طوّف بنا القرآن في مشهد الحياة والبهجة والرياح والمطر، يستدير السياق هنا ليعالج طبيعة النفس الجاحدة، ثم يعود ليعرض أطوار الإنسان الفردية، ثم يقفز بالبشرية إلى المشهد الأخير يوم القيامة، لينتهي الأمر بأمر حاسم حازم للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين: الثبات والصبر.

*(وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ)، السياق والمقصد: بعد أن ذكر في الآيات السابقة "الرياح" (بالجمع) التي تجلب المطر والبهجة، قابلها هنا بـ "الرّيح" (بالإفراد) التي تجلب العذاب واليأس. والمقصد هنا هو تعرية الطبيعة البشرية المتقلبة التي تفرح بالنعم سريعاً وتكفر وتجحد عند أدنى ابتلاء.

الإشراقة البلاغية: الإفراد والجمع: عبّر في السراء بـ (الرِّيَاحَ) جمعاً لأنها رياح رحمة وتلقيح، وعبّر هنا بـ (رِيحًا) فرداً، وهو المعهود في القرآن أن الريح بالإفراد تأتي للعذاب والجدب (ريح صرصر، ريح عقيم).

عن ابن عباس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: نُصِرتُ بالصَّبا، وأُهلِكَت عادٌ بالدَّبورِ.[1].

وهذا الحديثُ ممَّا يدُلُّ على أنَّ الرِّيحَ تَأتي تارةً بالرَّحمةِ، وتارةً بالعذابِ، فلْيَحذَرِ الناسُ ولْيُقدِّموا الطاعاتِ، ولا يَغتَرُّوا بعَلاماتِ اللهِ الكَونيَّةِ؛ فقد يكونُ في إحداها عَذابٌ.

وفي الحديثِ: أنَّ بَعضَ الرِّياحِ نَصْرٌ ورَحمةٌ؛ كالصَّبا، وبَعضَها عَذابٌ؛ كالدَّبورِ، وفيه: بَيانُ تَفضيلِ المخلوقاتِ بَعضِها على بَعضٍ وتَمايُزِها، مِثلُ هَواءِ الرَّحمةِ وهَواءِ العَذابِ، وفيه: مَشروعيَّةُ إخبارِ المرْءِ عن نفْسِه بما خَصَّه اللهُ به على جِهةِ التَّحدُّثِ بنِعمةِ اللهِ، والاعتِرافِ بها، والشُّكرِ له، لا على سَبيلِ الفخْرِ. وفيه: الإخبارُ عن الأُمَمِ الماضيةِ وإهْلاكِها، والاتِّعاظُ بها.

الضمير المحتمل للوجوه: (فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا). الضمير في "رأوه" يعود على "السحاب" أو "الزرع والنبات" المفهوم من السياق. والاصفرار هنا هو لون الموت واليباس بعد الخضرة والنضارة.

صيغة الاستمرار والتأكيد: (لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ). استخدام (ظلّ) التي تفيد ملازمة الفعل نهاراً، والمضارع (يكفرون) للدلالة على تجدد الكفر واستمراره بمجرد تغير الحال، وكأن كل ذلك الفرح والاستبشار السابق لم يكن!

يشير ابن القيم – رحمه الله - إلى أنّ هذه الآية تكشف "مرض الجحود" في النفس الإنسانية غير المنشأة على الإيمان؛ فإيمانهم معلق على المصلحة المادية المحضة، إن أصابهم مطر استبشروا، وإن أصاب زرعهم جفاف كفروا بالقواسم والسنن.

1 - أخرجه البخاري (1035)، ومسلم(900)

*(فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ)، السياق والمقصد: ترويح وتسلية لقلب النبي ﷺ؛ فبعد أن أظهرت الآية السابقة عنادهم وجحودهم، يقرر الله هنا أن هذا الصدود ليس لقصور في البلاغ، بل لموت في القلوب.

الإشراقة البلاغية: ما يطلق عليه البلاغيون الاستعارة التهكمية: شبّه الكفار بـ (الْمَوْتَىٰ) و(الصُّمَّ) وهو كذلك عمى بصيرة في قوله سبحانه (إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ).

وفي هذا زيادة المبالغة في الوصف، حيث أضاف إلى صممهم صفة زائدة وهي قوله سحبانه: (إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ)؛ فالأصم قد يفهم بالإشارة إذا كان مواجهاً لك، أما إذا ولى مدبراً فقد انقطعت كل وسائل تواصله مع الصوت.

*(وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ).

النحو التأكيدي: *(وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ} دخول الباء الزائدة في خبر (ما) الحجازية يفيد النفي القاطع لجهد النبي في هداية من كتب الله عليه الضلالة. (إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بآياتنا) أسلوب قصر بالنفي (إنْ) والإيجاب (إلا) لحصر الفائدة في قلوب المؤمنين المستعدين للتلقي.

يذكر ابن تيمية – رحمه الله - أنّ الموت والسمع المذكورين هنا هما "سمع وعي واستجابة" لا سمع حجة؛ فالكفار تسمع آذانهم الأصوات كالحيوانات، ولكن قلوبهم ماتت فلا تعي النور. ويقف سيد قطب – رحمه الله - هنا ليقول إن الحركة العضوية في الحياة لا تعني أنّ صاحبها حي؛ فكم من أجساد تتحرك في الأسواق وهي في ميزان الله "جيف وموتى" لا تسمع نداء الروح.

*(۞ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ).

السياق والمقصد: العودة بالإنسان إلى تاريخه الشخصي لكسر كبريائه وعناده. كيف يتكبر من يتقلب بين ضعفين؟

الإشراقة البلاغية: المقابلة والترتيب الهندسي للأطوار: [ضعف الطفولة] ثم [قوة الشباب] ثم [ضعف الشيخوخة والشيبة]

النحو البديع: (خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ) بفتح الضاد قراءة عاصم وحمزة، أو ضمها الرواية الأخرى لحفص عن عاصم وبقية القراء (ضَعْف/ضُعْف) قراءتان، و(مِن) هنا ابتدائية لبيان الأصل والمنشأ (ماء مهين/طفولة عاجزة).

زيادة اللفظ لزيادة المعنى: في الطور الأخير قال: {ضَعْفًا وَشَيْبَةً}، عطف الشيبة على الضعف لأن الشيب هو العنوان الظاهر لضعف الباطن وسقوط القوى الفسيولوجية.

الختام بالصفات المناسبة: (وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ)؛ عليم بتدبير هذه الأطوار، قدير على نقلكم من حال إلى حال، وعلى إعادتكم بعد الموت.

*(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ، وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

السياق والمقصد: الانتقال الفجائي المفزع من نهاية العمر الفردي (الشيبة) إلى نهاية العمر البشري الشامل (الساعة)، لبيان قصر الدنيا وهوانها.

الإشراقة البلاغية: الجناس التام المعجز: بين {السَّاعَةُ} (القيامة) و{سَاعَةٍ} (الوقت الزمني القصير). هذا الجناس يبرز المفارقة الهائلة بين ضخامة الحدث وأوهام المجرمين في الدنيا.

البناء لما لم يسم فاعله: {كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ} أي يُصرفون عن الحق في الدنيا كما صُرفوا عن تقدير الوقت في الآخرة.

المقابلة بين أهل الجهل وأهل العلم: *(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ). قدّم العلم المقرون بالإيمان لأن العلم الحقيقي هو الذي يثمر إيماناً بالغيبيات.

ثم أكّد بـ (لقد): (لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ) أي في حكمه وقضائه أو فيما كتبه في اللوح المحفوظ.

ينبه ابن عاشور – رحمه الله - إلى أن قسَم المجرمين (مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ) ليس كذباً متعمداً، بل هو ذهول واستقصار لمدد الدنيا والبرزخ أمام هول الأبدية ومشهد القيامة العظيم.

قلت: ثم يكون أعظم من ذلك حيث ينسى الشقي نعيم الدنيا، وينسى من كتب له السعادة شقوة الدنيا؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يُؤْتَى بأنعمِ أهلِ الدنيا من أهلِ النارِ يومَ القيامةِ، فيُصْبَغُ في جهنمَ صَبْغَةً، ثم يقالُ له: يا ابنَ آدمَ هل رأيتَ خيرًا قَطُّ؟ هل مَرَّ بك نعيمٌ قَطُّ؟ فيقولُ: لا واللهِ يا ربِّ، ويُؤْتَى بأَشَدِّ الناسِ بُؤْسًا في الدنيا من أهلِ الجنةِ، فيُصْبَغُ في الجنةِ صَبْغَةً، فيقالُ له: يا ابنَ آدمَ! هل رأيتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هل مَرَّ بك شِدَّةٌ قَطُّ؟ فيقولُ: لا واللهِ يا رَبِّ! ما مَرَّ بي بُؤْسٌ قَطُّ، ولا رأيتُ شِدَّةً قَطُّ[1].

*(فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)، الإشراقة البلاغية: تصدير الآية بـ (فَيَوْمَئِذٍ) لربط الجزاء بالفضيحة العلمية التي تبينت في الآية السابقة.

---

1 - أخرجه مسلم (2807) باختلاف يسير.

مع دقة الاختيار اللفظي: (وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ) من "الاستعتاب" وهو طلب العُتبى (أي طلب الرضا)، والسين والتاء للطلب. والمعنى: لا يُطلب منهم أن يرضوا ربهم لأن وقت العمل قد فات، فالآخرة دار جزاء لا دار استعتاب واعتذار.

*(لَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ).

السياق والمقصد: إقامة الحجة الكاملة وتفنيد أعذارهم؛ فالقرآن لم يترك لوناً من ألوان الهداية والضرب الأمثالي إلاّ واستعمله، كما أنّ النبي صلى الله عليه وسلم لم يأل جهداً في نصحهم، وبيان الطريق المستقيم لهم.

الإشراقة البلاغية: التأكيد بالقسم واللام: (وَلَقَدْ) لتأكيد بذل الوسع في بيانه سبحانه للعباد.

القصر الإضافي بالتنكير والتعميم: (مِن كُلِّ مَثَلٍ)، ثم حتى لو جئتهم بما هم ملحّون على طلبه ليل نهار: (وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ)، لكان ردهم هو الوصف بالافتراء الصارم: (لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ). أسلوب حصر مؤكد بنون التوكيد الثقيلة واللام الموطئة للقسم، يكشف أنهم يواجهون الآيات الباهرة بكلمة واحدة وقحة: "أنتم أهل باطل وسحر".

*(كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)، إشراقة مقاصدية: ما يطلق عليه البلاغيون: استعارة التمثيل: (يَطْبَعُ)، الطبع هو الختم والإغلاق الشديد، فشبه إغلاق قلوبهم عن النور بوعاء مختوم عليه شمع أحمر لا يدخله شيء ولا يخرج منه شيء.

العلة السببية: (عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)، والجهل هنا ليس جهل القراءة والكتابة، بل هو الجهل المركب بآيات الله الكونية والشرعية، والامتناع الإرادي عن المعرفة.

يربط البقاعي – رحمه الله - في (نظم الدرر) إغلاق الدائرة هنا ببدء السورة؛ حيث بدأت السورة بذم الذين يعلمون "ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون"، وختمت هنا بأن الطبع عقوبة لازمة للذين آثروا هذا الجهل واستمرؤوه.

*(فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ)، هذه هي الخاتمة العظمى وجوهرة السورة، حيث تتألق هذه الآية لتلخص معركة الإيمان والجاهلية في كل زمان ومكان؛ خطاب لرسول الله ﷺ ومن سار على دربه ونهجه.

الإشراقة البلاغية والنحوية: الأمر الحاسم: (فاصْبِرْ)، جاء بالفاء لترتيب الأمر على كل ما تقدم من عنادهم وطبيعة طبع الله على قلوبهم؛ بما أنهم موتى وصم وعمي ومختوم على قلوبهم، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات.. بل اصبر.

كما أنّ التعليل المؤكد: (إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ). جملة اسمية مؤكدة بـ (إنّ) لتثبيت الرواسي في القلب، ووعد الله يشمل نصر الدنيا وبعث الآخرة.

أمّا النهي البلاغي المعجز: (وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ)، فهو نحوياً: الفعل المضارع (يستخفنّك) مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة في سياق النهي بـ (لا).

بلاغياً ولغوياً: (يستخفنك) من الخفة ضد الرزانة والثبات. أي: لا تجعلهم يجدون فيك خفة أو قلقاً أو اضطراباً بسبب استهزائهم وعنادهم، ولا يستدرجونّك إلى ملاحاتهم أو الشك فيما جئت به.

كما أنّ المقابلة الوصفية في وسمهم بـ (الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ)؛ لأن القلق والاضطراب نابع من عدم اليقين، بينما الصبر والرزانة نابعان من امتلاء القلب باليقين.

يصوغ محمد قطب – رحمه الله - حول هذه الآية مفهوماً حركياً وتربوياً باهراً، فيقول: "إن ضغط الباطل وجموح الجاهلية وعنادها يمثل (ثقلاً) نفسياً يحاول أن يزحزح صاحب الدعوة عن مكانه وعن رزانته، والقرآن يسكب اليقين سكبًا ليرد إلى الداعية وقاره وثباته الإيماني، فلا يطيش مع طيش الجاهلية".

ويختم ابن عاشور – رحمه الله - بأن هذه الآية الكريمة سارت مسار الأمثال السائرة في وجوب الثبات والرزانة أمام ترهات الجاهلين وأهل الشبهات.

ترابط القوسين (أول السورة وآخرها): بدأت سورة الروم بـ (غُلِبَتِ الرُّومُ) و(وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ)، وكان المسلمون في قلق وخفة من انتصار الفرس على أهل الكتاب، فجاء أول السورة بوعد كوني وتاريخي، وجاء آخر السورة بالخلاصة العملية لكل هذه الجولات الكونية والتاريخية: (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ). إنها وحدة بنائية مذهلة تربط حركة التاريخ بصلابة القلوب المؤمنة.

*

سورة لقمان

تسمية السورة

(سورة لقمان): هو الاسم التوقيفي الوحيد الذي اشتُهرت وعُرفت به هذه السورة في جميع المصاحف وكتب التفسير وعلوم القرآن، سميت بذلك لما تضمنته من حِكم ومواعظ عظيمة أدّب بها لقمان الحكيم ابنه، والتي تُعد نموذجاً فريداً في تربية وتنشئة الأبناء، وقد ذكر فهيا باسمه، رحمه الله ورضي عنه.

وهي سورة مكية تعالج مواضيعها قضايا العقيدة، والإيمان بالله، وتوحيده، والتحذير من الشرك، إلى جانب الأمر بفضائل الأخلاق.

ورد خلاف في عدد آيات سورة لقمان بين علماء العدد في الأمصار الإسلامية؛ حيث يبلغ عدد آياتها 34 آية في العدد الكوفي، بينما يبلغ 33 آية في العدد المدني والمكي، وهذا الاختلاف إنما هو في الوقف والوصل، فقد يعد بعض المدارس قوله تعالى (الم) آية مستقلة، بينما تحسبها مدرسة أخرى آية مع ما بعدها، وكذا غيرها من الآيات.

ومما ورد في بعض آياتها، حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: لمَّا نزلت: الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ شَقَّ ذلِكَ علَى المسلِمينَ فقَالوا: يا رسولَ اللَّهِ وأيُّنا لا يظلِمُ نفسَهُ؟ قالَ: ليسَ ذلِكَ إنَّما هوَ الشِّركُ ألَم تسمَعوا ما قالَ لقمانُ لابنِهِ: يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ [1].

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: كانَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ يُصلِّي بنا الظُّهرَ فيُسمِعُنا الآيةَ من سورةِ لُقمانَ. زادَ عُقبةُ والذَّارياتِ [2].

بسم الله الرحمن الرحيم

*(الم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (2) هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ (3) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (6) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (7) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (8) خَالِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (10) هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(11))

هذه الآيات الافتتاحية، مطلع سورة لقمان تمثل بنية هندسية بيانية مذهلة، تتقابل فيها صفات أهل النعيم بصفات أهل الشقاء، وتتحرك من المحسوس البيئي إلى الغيب الإيماني.

---

1 - أخرجه الترمذي (3193) واللفظ له، وأحمد (2495) باختلاف يسير وصحح الألباني إسناده في صحيح الترمذي.
2 - أخرجه النسائي (971)، وابن ماجه (830) واللفظ له، وحسنه ابن حجر العسقلاني في نتائج الأفكار.

موضوع السور المكية كلها - على وجه التقريب – هو العقيدة وقضاياها؛ توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الدينونة لله وحدة في الدنيا والآخرة جميعاً. ومن ثم قضية الوحي وقضية البعث . . وما إليها. والذي يختلف من سورة إلى سورة في القرآن المكي إنما يكون في عرضها لقضية العقيدة، إنما هو طريقة العرض.

يتفق الأستاذ سيد قطب –رحمه الله–: غن سورة لقمان مثل بقية السور المكية، موضوعها الأساسي هو العقيدة، ثم يقول سيد–رحمه الله: "والسورة تتولى عرض هذه القضية بطريقة تستدعي التدبر لإدراك الأسلوب القرآني العجيب في مخاطبة الفطر والقلوب. وكل داع إلى الله في حاجة إلى تدبر هذا الأسلوب.

إنّها تعرض هذه القضية في مجال العرض القرآني. وهو هذا الكون الكبير، سماؤه وأرضه، شمسه وقمره، نهاره وليله، أجواؤه وبحاره، أمواجه وأمطاره، نباته وأشجاره.. هذا المجال الكوني يتكرر في القرآن الكريم، فيحيل الكون كله مؤثرات ناطقة، وآيات مبثوثة عن الأيمان والشمائل، تخاطب القلوب البشرية وتؤثر فيها وتستحييها، وتأخذ عليها المسالك والدروب.

ومع أن القضية واحدة ومجال واحد، فإنها تعرض في السورة أربع مرات في أربع جولات:

تبدأ الجولة الأولى بعد افتتاح السورة بالأحرف المقطعة.. وعند قوله تعالى (هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) تنتهي الجولة الأولى بقضايا ومؤثرات معروضة في ساحة الكون الكبير.

أما الجولة الثانية فتبدأ من خلال نفوس آدمية، وتتناول القضية ذاتها في المجال ذاته بأسلوب جديد ومؤثرات جديدة.. (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ).. – إلى – المؤثر بتحقير التصعير والنفخة ملحوظة في التعبير، وبه تنتهي هذه الجولة الثانية وقد عالجت القضية ذاتها في مجالها المعهود، بمؤثرات جديدة وبأسلوب جديد.

ثم تبدأ الجولة الثالثة بعرض القضية المعهودة في مجال السماوات والارض، مصحوبة بمؤثر منتزع من علاقة البشر بالسموات والأرض وما فيها من نعم سخرها الله للناس وهم لا يشكرون (أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ)، ويختم الجولة بمشهد يصور امتداد علم الله بلا نهاية، وانطلاق مشيئته في الخلق والإنشاء بلا حدود، ويجعل هذا دليلا على البعث والإعادة وعلى الخلق والإنشاء: (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ).

وتبدأ الجولة الرابعة بمشهد كوني ذي ايقاع في القلب البشري. مشهد من الليل وهو يطول فيدخل في جسم النهار ويمتد، والنهار يطول فيدخل في جسم الليل ويمتد، ومشهد الشمس والقمر مسخرين فكليهما يجريان في حدود مرسومة إلى وقت لا يعلمه إلاّ خالقهما الخبير بهما وبالناس وبما يعلمون: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ).. (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ۚ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ) وعند هذا المقطع المؤثر الذي يرتجف له الكيان تختم السورة بآية تقرر القضايا التي عالجتها جميعا، في إيقاع قوي عميق مرهوب: (إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) .

ولا يختلف الأستاذ محمد قطب مع أخيه في أن السورة تقرر قضية العقيدة في أربع مقاطع، وإن اختلفا في بداية المقطع الأخير، غير أن الأستاذ محمد لا يتحدث عن بداية المقاطع ونهايتها إلاّ من خلال انتهاء الفقرات وابتدائها [1].

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾: حروف مقطعة، لا محل لها من الإعراب صراحة، لكنها تعمل كـ "مبتدأ" عند بعض النحاة، والخبر ما بعدها. من منظور لساني حديث، هي "صدمة صوتية لقرع نادٍ من البلغاء بما يعرفون من جرس الحروف، ليعجزوا عما بعدها.

إشراقة بلاغية وسياقية: يقول البقاعي -رحمه الله - في (نظم الدرر): إن تصدير السورة بالحروف المقطعة إشارة إلى إعجاز هذا الكتاب؛ فالمادة الخام بين أيديكم، لكن الصياغة ربانية، وجاءت مخارجها (الهمزة من الحلق، اللام من اللسان، الميم من الشفتين) مستوعبة للمخارج الإنسانية كأنها تجمع الصوت البشري كله للإنصات.

المقاصدية والتفسيرية: يرى ابن تيمية – رحمه الله - أن هذه الحروف أسماء للقرآن أو مفاتيح، والمقصد الأسمى لها هو "التعجيز والتهيئة"؛ تهيئة النفس لسمع ما لا يقدر عليه البشر.

*﴿تِلۡكَ آيَاتُ الۡكِتَابِ الۡحَكِيمِ﴾: ﴿تِلۡكَ﴾ اسم إشارة للبعيد (مبتدأ)، و﴿آيَاتُ﴾ خبره. التعبير بالإشارة للبعيد يُستخدم لـ "التفخيم والمكانة العالية" وليس لبُعد المسافة الحسي.

إشراقة بلاغية: وصف الكتاب بـ ﴿الۡحَكِيمِ﴾ هو مما يسميه البلاغيون: استعارة مكنية، حيث أُسندت الحكمة للكتاب (وهي صفة العاقل) مبالغةً، أو بمعنى "المُحكم" الذي لا خلل فيه.

المقاصدية والتفسيرية: يربط ابن عاشور – رحمه الله - في (التحرير والتنوير) بين ﴿الۡحَكِيمِ﴾ واسم السورة "لقمان" (الذي أوتي الحكمة). فالمقصد هو إثبات أن هذا الكتاب هو منبع الحكمة المطلقة، تمهيداً لقصة لقمان الحكيم لاحقاً، أمّا سيد قطب – رحمه الله - فيرى (في ظلال القرآن) أن وصف "الحكيم" يشي بالتدبير والحياة؛ فالكتاب كائن حي يُربي ويُوجّه بحكمة.

([1]) – سيد قطب: في ظلال القرآن (ص2780/5 – 2783)، محمد قطب: دراسات قرآنية (ص190 - 213).

* ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ حالان منصوبان من ﴿آيَاتُ﴾، أو مفعول لأجله، وجاءا مصدرين نكرتين ليفيدا التعظيم المطلق: هو عين الهدى وعين الرحمة.

إشراقة بلاغية: التنكير للتفخيم. واستخدام المصدر (هدى، رحمة) بدلاً من اسم الفاعل (هادياً وراحمًا) هو من باب المبالغة، فالكتاب هو نفسه هداية ورحمة.

قوله سبحانه: (لِّلْمُحْسِنِينَ): يتساءل ابن القيم – رحمه الله - في (مدارج السالكين): لِمَ خُصّ المحسنون بالهدى والرحمة مع أن القرآن للناس كافة؟ ويجيب: لأن المحسن أخذ بأسباب الهداية فاستحق الرحمة التامة، والإحسان هنا (أن تعبد الله كأنك تراه)؛ فمن كانت هذه حاله، كانت آيات الكتاب له نوراً كاشفاً.

* ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾: ﴿الَّذِينَ﴾ نعت للمحسنين أو بدل. وجيء بالأفعال المضارعة ﴿يُقِيمُونَ﴾، ﴿يُؤْتُونَ﴾ لإفادة التجدد والاستمرار. وفي الجملة الأخيرة حدث تغير أسلوبي: ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾؛ دخلت الجملة الاسمية، وتكرر الضمير ﴿هُمْ﴾، وقُدّم الجار والمجرور ﴿بِالْآخِرَةِ﴾.

إشراقة بلاغية: تقديم ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ يفيد القصر والحصر أي: لا يوقنون بآخرة مشوبة بالشك كأهل الأوثان، بل إيقان خالص، كما أنّ تكرار ﴿هُمْ﴾ توكيد لفظي لتقوية النسبة الإسنادية، والعدول إلى الجملة الاسمية في اليقين يفيد الثبوت والاستقرار، فالصلاة والزكاة أعمال تتجدد، أما اليقين بالآخرة فعقيدة ثابتة لا تهتز.

المقاصدية والتفسيرية: يُشير محمد قطب – رحمه الله - في ظلال فكره التربوي إلى أن الآية جمعت أركان العبادة البدنية (الصلاة)، والمالية والاجتماعية (الزكاة)، والمحرك النفسي لهما وهو (اليقين بالآخرة). لا إحسان بلا حركة واقعية تترجم العقيدة.

* ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ اسم إشارة للبعيد تفخيماً لشأنهم. استخدام حرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾ له دلالة لسانية فراغية هامة؛ فالهدى جُعل كالدابة أو المركب الشريف الذي يعلوه المؤمن فيقوده إلى النجاة. ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل لا محل له من الإعراب، يفيد الحصر والتوكيد.

إشراقة بلاغية: تكرار اسم الإشارة ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ لبيان أنهم كما استحقوا الوصف الأول (التمكن من الهدى)، استحقوا الوصف الثاني (انحصار الفلاح فيهم). والتعريف في ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ بأل الجنسية يفيد استغراقهم لصفات الفلاح. اللهم اجعلنا منهم.

المقاصدية والتفسيرية: يقول ابن تيمية – رحمه الله - إن تنكير ﴿هُدًى﴾ يدل على أنه هدى عظيم لا يُقدر قدره، ونسبته ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ تذكير بربوبية الرعاية والتوفيق. المقصد هنا هو الطمأنينة؛ فمن ركب سفينة الهدى وصل حتماً إلى شاطئ الفلاح.

* ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ خبر مقدم، و﴿مَن﴾ مبتدأ مؤخر. المقابلة هنا حادة جداً وسياقية بين من يأخذ الكتاب الحكيم، ومن يشتري لهو الحديث. وقرأ ابن كثير وعاصم ﴿لِيُضِلَّ﴾ بضم الياء (أي يضل غيره)، وقرأ الباقون بفتحها (يضل هو في نفسه)، والقراءتان متكاملتان تداولياً.

إشراقة بلاغية: استعارة ﴿يَشْتَرِي﴾؛ فالإنسان لا يشتري كلاماً بالمال عادة (إلاّ في سياق شراء المغنين والمغنيات كما في سبب النزول للنضر بن الحارث)، ولكن الشراء هنا استعارة للاستبدال والرغبة العارمة، حيث بذلوا النفيس (العمر والمال) لشراء الرخيص (اللهو) وتركوا القرآن المجاني المربح. المقابلة البلاغية: المحسنون لهم فلاح، وهؤلاء لهم ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، ونوع العذاب "مهين" لأن ذنبهم كان الكبر والاستهزاء، والجزاء من جنس العمل.

قال أبو الصهباءِ البكري مولى ابن عباس قال: سألت ابنَ مسعودٍ – رضي الله عنه - عن قولِه تعالَى: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الحَدِيثِ فقال: واللهِ الذي لا إلهَ غيرُه هو الغناءُ ، يُرَدِّدُها ثلاثَ مراتٍ [1].

يتوسع ابن القيم – رحمه الله - في (إغاثة اللهفان) في تحقيق معنى "لهو الحديث"، ويوضح كيف أن الغناء والملاهي تصد القلب عن القرآن حتماً؛ لأنهما لا يجتمعان في قلب عبد، أمّا سيد قطب – رحمه الله - فيقارن هنا بين جدية العقيدة وخلخلة "اللهو" لبنية الأمة النفسية.

* ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ حال منصوبة تبين الهيئة النفسية والجسدية للمشتري للهو. تكرار أداة التشبيه ﴿كَأَنَّ﴾ يرسم مشهداً نفسياً وعرضاً متتابعاً.

إشراقة بلاغية: مشهد تصويري؛ الإعراض والحركة الجسدية ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾. ثم التهكم البلاغي في قوله ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ فأصل التبشر إنّما بالخير، واستعمال البشارة في العذاب الأليم هو تهكم وتقريع يمزق كبرياءه.

([1]) – أخرجه ابن أبي شيبة (21130)، وابن أبي الدنيا في ((ذم الملاهي)) (26)، والطبري (20/ 127)، والحاكم (3542) واللفظ لهم جميعا، وصحح ابن باز إسناده في مجموع فتاوى بن باز (ج21/ص123).

يلاحظ البقاعي – رحمه الله - لطيفة سياقية: لما قال في الآية السابقة ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، ناسب هنا أن يقول ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾؛ لأن العلم ينشأ عن السماع الواعي، فإذا سد سمعه بقي بلا علم. المقصد هو كشف البنية النفسية للمشرك: الكبر يمنع منافذ الإدراك الحسي (الأذن) من إيصال الحق للقلب.

*﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾: عودة إلى المقابلة والاتزان الأسلوبي: الجملة مؤكدة بـ ﴿إِنَّ﴾. تقديم الجار والمجرور ﴿لَهُمْ﴾ يفيد الاختصاص والملك المطلق.

إشراقة بلاغية: إضافة الجنات إلى ﴿النَّعِيمِ﴾؛ النعيم هنا مصدر عام يشمل نعيم الروح والبدن والقلب، وهي مقابلة بليغة مع ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ و﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ للطرف الآخر.

ثرى ابن عاشور -رحمه الله - أنّ إعادة ذكر المؤمنين هنا (بعد ذكر المحسين أولاً) جاء ليعقد مقارنة مباشرة بعد آيتي أهل اللهو؛ ليزداد المؤمنون غبطة، ويزداد الكافرون حسرة.

*﴿خَالِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: ﴿خَالِدِينَ﴾ حال مقدرة (لأن الخلود مستقبلي)، ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ منصوبان على أنهما مصدران مؤكدان لنفسيهما ولفعل محذوف (وعد الله ذلك وعداً وحقّق حقاً). وختم بـ ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

إشراقة بلاغية: تذييل الجملة باسمين من أسماء الله الحسنى متناسبين تماماً مع السياق: ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا يعجزه الوفاء بوعده ولا يمنعه أحد، و﴿الحَكِيمُ﴾ الذي يضع هذا الثواب في موضعه اللائق بمقتضى الحكمة.

يرى ابن تيمية – رحمه الله - أنّ توكيد الوعد بالحق تطييب لنفوس المؤمنين المضطهدة في مكة، فالمقصد التثبيت العاطفي والعقلي بأنّ العاقبة لازمة لا محالة.

*﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾

الالتفات من الغيبة ﴿خَلَقَ﴾، ﴿وَأَلْقَىٰ﴾، ﴿وَبَثَّ﴾ إلى التكلم المتبوع بنون العظمة ﴿وَأَنزَلْنَا﴾، ﴿فَأَنبَتْنَا﴾. جملة ﴿تَرَوْنَهَا﴾ نعت لـ ﴿عَمَدٍ﴾ (أي: بغير عمد مرئية، أو لا عمد لها أصلاً وأنتم ترونها كذلك، ﴿أَن تَمِيدَ﴾ مفعول لأجله بتقدير كراهية أن تميد أو لئلا تميد.

إشراقة بلاغية: سعة مشهد الخلق الاستدلالي، وصف النبات بـ ﴿زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾؛ يقول البلاغيون: استعارة لطيفة ترفع من شأن النبات فهو كائن كريم ذو نفع حسن

وشكل بهي. الالتفات إلى (نا) المتكلم في السقيا والإنبات لاستحضار القرب والامتنان المباشر بالرزق اليومي المشاهد للمخاطبين.

يشرح ابن القيم – رحمه الله - في (مفتاح دار السعادة) أسرار هذه الآية الكونية: كيف ثبتت الأرض بالرواسي (الجبال) لئلا تضطرب بالبشر، وكيف بُثت الدواب، وكيف جعل النبات أزواجاً. المقصد الرئيسي هو نقل العقل البشري من التجريد العقدي إلى الشهود الحسي؛ فالحكيم الذي أحكم الكتاب (في مطلع السورة) هو الحكيم الذي أحكم الكون (في هذه الآية).

*﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

﴿هَٰذَا﴾ اسم إشارة للقريب المشاهد المعاين (الكون المشهود في الآية السابقة). ﴿فَأَرُونِي﴾ الفاء الفصيحة، والأمر للتعجيز. الإضراب بـ ﴿بَلِ﴾ إضراب انتقال وإبطال لدعواهم.

إشراقة بلاغية: أسلوب التحدي والتعجيز البلاغي ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ﴾؛ وهو استفهام إنكاري توبيخي يقطع حجة الخصم تماماً، كما أنّ تقديم ﴿الظَّالِمُونَ﴾ والخطاب بـ ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ ولم يقل (ضالون)؛ لأن ظرفية ﴿فِي﴾ تفيد الانغماس والتعمية، كأن الضلال محيط بهم من كل جانب كالغرفة المظلمة.

يسجل سيد قطب – رحمه الله - في هذه الآية قمة القوة في مواجهة الكفر بمكة: "هذا هو الكون المعروض أمامكم.. فأروني ماذا خلقت آلهتكم؟".

هكذا ينتهي المقطع الاستهلالي للسورة بهدم أرضية الشرك تماماً، لتبدأ السورة بعد ذلك في بناء الحكمة الإيمانية العملية على لسان لقمان.

وبذلك يتكامل المطلع: بدأ بـ "الكتاب الحكيم" وانتهى بـ "الكون المحكم"، وبينهما انقسم البشر إلى محسنٍ فالح، ومشتري لهوٍ هالك.

*﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (12) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (13) وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (15) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (16) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (17) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا

يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (18) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ(19))

هذه الآيات في الدرس الثاني من سورة لقمان تمثل أنموذجاً فريداً في القرآن الكريم لبناء الشخصية الإنسانية السوية، وتُعدّ دستوراً تربوياً متكاملاً يمزج بين العقيدة، والأخلاق، والعبادة، والتعامل اليومي.

التأسيس لمفهوم الحكمة والشكر: *﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾

جاءت هذه الآية كتمهيد وتوطئة لذكر المواعظ التي تليها. الله سبحانه يعلن أنه هو الذي آتى لقمان الحكمة، ليضفي على نصائحه اللاحقة طابع القدسية والقبول. المقصد الأعلى هنا هو بيان أن "الحكمة" الحقيقية ليست مجرد ذكاء عقلي، بل هي إدراك النعمة والقيام بحقها (الشكر).

﴿وَلَقَدْ﴾: الواو استئنافية، واللام موطئة للقسم، و"قد" حرف تحقيق؛ لتأكيد ثبوت إيتاء الحكمة له.

﴿أَنِ اشْكُرْ﴾: "أن" هنا مفسرة لأن الحكمة تتضمن معنى القول دون حروفه، أو هي مصدرية؛ أي: آتيناه الحكمة لأن يشكر.

إشراقة بلاغية: يذكر ابن القيم – رحمه الله - في كتابه (مدارج السالكين) أنّ الحكمة هي "فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي". وهنا، أول ما ينبغي فعله عند نيل الحكمة هو الشكر، فالحكمة قيد النعم القديمة وصيد النعم الجديدة.

كما يلمح ابن عاشور – رحمه الله - (التحرير والتنوير) إلى الالتفات وبلاغة المقابلة بين ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ﴾ و﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾. ولم يثبت الجزاء للشكر مباشرة بل قال ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ لبيان أن نفع الشكر عائد على العبد، بينما في المقابل قال ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فإنّ الله غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ بصيغة الاسمية والتوكيد و(إنّ)، لبيان مطلق استغناء الله عن خلقه، فهو حميد في ذاته وإن لم يحمده أحد.

فقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ آية جامعة لقاعدة كلية في "توحيد الأفعال"، ومقاصد العبادات، وسُنة الله في الجزاء. ومفتاح تدبرها يكمن في أنّ كمال الله -عز وجل- مطلق، وأن العبد هو المحتاج إلى الطاعة؛ فنفع العبادة وثمرتها يعودان إلى المُكلَّف نفسه، لا إلى المعبود الغني سبحانه.

(فَمَنْ): الفاء استئنافية، (مَن): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. (يَشْكُرْ): فعل مضارع، فعل الشرط، مجزوم وعلامة جزمه السكون، والفاعل ضمير مستتر جوازاً تقديره (هو).

(فَإِنَّمَا): الفاء واقعة في جواب الشرط. (إنَّ): حرف توكيد ونصب مكفوف عن العمل بـ (ما) الكافّة.يَشْكُرُ: فعل مضارع مرفوع، والفاعل ضمير مستتر (هو). والجملة في محل جزم جواب الشرط المقترنة بالفاء.

(لِنَفْسِهِ): جار ومجرور متعلق بـ (يشكر). (وَمَنْ كَفَرَ): الواو عاطفة، (مَن): اسم شرط مبتدأ. (كفر): فعل ماضٍ في محل جزم فعل الشرط، والجملة خبر المبتدأ (الثاني).

(فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ): الفاء رابطة للجواب. (إنَّ): حرف ناسخ. (الله): اسمها. (غني): خبر أول. (حميد): خبر ثان. والجملة في محل جزم جواب الشرط.

إشراقة بلاغية: أسلوب شرط، يُبرز سُنة الله في الاختيار والجزاء، كما أنّ القصر والحصر: في قوله ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ بـ (إنّما)، وهي تفيد قصر القلب (إثبات الحكم في المذكور ونفيه عما عداه). أي: أن الشكر لا يعود إلى الله، بل يُقصر نفعه وثمرته على العبد وحده.

الطباق: التقابل البديعي بين حالتين: ﴿يَشْكُرْ﴾ و ﴿كَفَرَ﴾، وبين عاقبة الطاعة وعاقبة الجحود.

أمّا لام العِلّة والاختصاص: في قوله: ﴿لِنَفْسِهِ﴾؛ تفيد اختصاص النفع بالعبد، وكذا التذييل، حيث خُتمت الآية بجملة ﴿فإنَّ الله غني حميد﴾، وهي تذييل يقرر القاعدة الكونية؛ فالله غني عن طاعة العباد، ومحمود لذاته في كل حال.

مقصد التنزيه والاستغناء الإلهي: يشير ابن تيمية وابن القيم – رحمهما الله - إلى أن الله مستغنٍ بذاته عن العوالم كلها؛ فلو كفر أهل الأرض جميعاً، لا ينقص ذلك من ملكه شيئاً، ولو شكره الناس كلهم، لا يزيد في عظمته. ومعنى الحميد أنه المحمود على كل حال، المستحق للحمد سواء شكر العباد أم كفروا.

مقصد رحمة الله في التكليف: يُبيّن الإمام البقاعي – رحمه الله - أنّ الله تعالى يأمر بالعبادة، لا لحاجة إليها، بل لأنها طريق "العمارة النفسية" للإنسان؛ فالله سبحانه وحده له المنّة وله الفضل على عبده بأن يجعل أثر العبادة عائداً لصالحه، من زكاة القلب، واستبقاء النعمة، واستجلاب المزيد.

الرؤية الحركية في التوجيه: يبرز سيد قطب - رحمه الله- (في ظلال القرآن) أن الشكر هو استجابة فطرية للتوحيد، وأن العبد إذا شكر فهو يُحرر نفسه من أغلال الجحود والاستعباد لغير الله.

والشكر في هذا السياق هو إدراك العبد لدوره وهدفه في الحياة، ومن يكفر (يجحد النعمة) فإنما يحرم نفسه من هذا التحرر ويجني عليها، بينما الله الغني عن طاعاتهم.

التوحيد كمنطلق تربوي: *﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾

الانتقال من الإطار العام للحكمة إلى التطبيق العملي لها. والمقصد الأساسي هو تقديم "حق الله" (التوحيد) ونفي الشرك كخطوة أولى في التربية؛ إذ لا ينصلح سلوك دون انصلاح المعتقد.

﴿وَإِذْ﴾: ظرف زمان متعلق بفعل محذوف تقديره "اذكر"، ﴿وَهُوَ يَعِظُهُ﴾: جملة اسمية في محل نصب حال، وفيها دلالة على أن القول لم يكن عابراً، بل كان في مقام وعظ وتلطف وتوجيه مستمر يظهر ذلك في استعمال الفعل المضارع "يعظه".

إشراقة بلاغية: يركز سيد قطب – رحمه الله - (في ظلال القرآن) على اللمسة الوجدانية الدافئة في نداء ﴿يَا بُنَيَّ﴾، وهو تصغير تحبيب وتلطف. الوعظ يحتاج إلى فتح قنوات القلوب أولاً، والتصغير هنا يذيب الفجوة بين الأب وابنه ليتقبل التكليف الصعب وهو ترك دين البيئة إن كان فاسداً.

كما يوضح ابن تيمية – رحمه الله - في مجموع الفتاوى معنى ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾؛ فالظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، وأي ظلم أقبح من أن يُسوى المخلوق من تراب بالخالق مالك السماوات والأرض؟ وجاءت الجملة مؤكدة بـ "إنّ" و"اللام" لتقصير المسافة وتثبيت الحقيقة العقائدية.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سَألتُ -أو سُئِلَ- رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أيُّ الذَّنبِ عِندَ اللهِ أكبَرُ؟ قال: أن تَجعَلَ للهِ نِدًّا وهو خَلَقَكَ. قُلتُ: ثُمَّ أيٌّ؟ قال: ثُمَّ أن تَقتُلَ ولَدَكَ خَشيةَ أن يَطعَمَ معكَ. قُلتُ: ثُمَّ أيٌّ؟ قال: أن تُزانيَ بحَليلةِ جارِكَ. قال: ونَزَلَت هذه الآيةُ تَصديقًا لقَولِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (والذينَ لا يَدعونَ مَعَ اللهِ إلَهًا آخَرَ ولا يَقتُلونَ النَّفسَ التي حَرَّمَ اللهُ إلَّا بالحَقِّ ولا يَزنونَ) [الفرقان:68] [1].

الاستطراد لحق الوالدين: *﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾

هذه الآية اعتراضية (جملة معترضة) من كلام الله عز وجل وليست من كلام لقمان، لأنّ السياق يقتضي ربط حق الوالدين بحق الله؛ فالله هو الخالق المنشئ، والوالدان هما سببا الوجود الإنساني في الدنيا، وهو ما جرى عليه القرآن في سور الأنعام (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ) [الأنعام:151]، وسورة الإسراء (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ) [الإسراء:23]، وهذه السورة، وسورة الأحقاف : بعد قوله سبحانه (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا

(1) – أخرجه البخاري (4761) ومسلم (86) باختلاف يسير

رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)، قال: (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا) [الأحقاف:13-15].

﴿وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾: "وهناً" مصدر منصوب على أنه حال من الأم، أي: حال كونها ذات وهن، أو مفعول مطلق لِفعل محذوف (توهن وهناً)، والتكرار بـ "على" يفيد تضاعف المشقة والضعف يوماً بعد يوم مع نمو الجنين.

إشراقة بلاغية: يرى البقاعي – رحمه الله - في (نظم الدرر) إعجازاً في تقديم ذكر الأم وتفصيل تعبها ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ قبل الأمر بالشكر لهما؛ وذلك لأن مشقة الأم خفية ومستمرة ولا يراها الطفل في صغره، فذكّره الله بها تطييباً لقلبها وحثاً على برها.

أمّا محمد قطب – رحمه الله – فيشير في أطروحاته التربوية إلى أن القرآن يستجيش الوجدان البشري عبر تصوير المشاهد الحية (الحمل، الفصال) ليتحول الواجب العقلي إلى دفقة شعورية حانية تجعل الابن يبر والديه حباً لا كلفاً.

حدود الطاعة ومصاحبة المعروف: *﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

السياق والمقصد: موازنة دقيقة بين العقيدة والصلة الإنسانية. المقصد هو وضع "خطوط حمراء" لعلاقات البشر البينية؛ فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، لكن الاختلاف في العقيدة لا يبرر قسوة التعامل الجسدي أو النفسي مع الوالدين.

﴿جَاهَدَاكَ﴾: صيغة "فاعل" (المفاعلة) تدل على بذل الجهد المستمر والضغط المتكرر من الوالدين لإجبار الابن على الشرك.

عن مصعب بن سعد عن أبيه أنه نزلت فيه آيات من القرآن قال حلفت أم سعد أن لا تكلمه أبدا حتى يكفر بدينه ولا تأكل ولا تشرب قالت زعمت أن الله وصاك بوالديك وأنا أمك وأنا آمرك بهذا قال مكثت ثلاثا حتى غشي عليها من الجهد فقام ابن لها يقال له عمارة فسقاها فجعلت تدعو على سعد فأنزل الله عز وجل في القرآن هذه الآية (ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك على أن تشرك بي وفيها وصاحبهما في الدنيا معروفا) [العنكبوت:8] [1].

وفي رواية قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: أُنزلت فيَّ أربعُ آياتٍ - فذَكرَ قصَّةً - وقالت أمُّ سعدٍ أليسَ قد أمرَ اللَّهُ بالبرِّ واللَّهِ لا أطعَمُ طعامًا ولا أشربُ

(1) – أخرجه مسلم (4432، 1748).

شرابًا حتَّى أموتَ أو تَكفُرَ قالَ فَكانوا إذا أرادوا أن يطعِموها شَجروا فاها فنزلَت هذِهِ الآيةَ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي [1].

والمقصود أن أذية الوالدين لمن أسلم حديثاً خاصة الأم ذكرها الله في كتابه، وكانت منذ عهد قدواتنا الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، فليقتد بها ولا يستوحش المتهدي في أي عصر كان.

﴿مَعْرُوفًا﴾: صفة لمصدر محذوف (مصاحبةً معروفة)، أو مفعول مطلق، أو منصوب على بنزع الخافض (بالقسط والمعروف).

إشراق بلاغية: يبرز ابن عاشور المقابلة الرائعة بين الحزم العقدي ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ واللين الإنساني ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾. فلفظ ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ تقليل لمدتها وسرعة انقضائها، أي: إنها سنوات قليلة فصاحبهما فيها بالمعروف، أما الآخرة فلله وحده.

وقيل إنّ الأمر بمصاحتهما والإحسان عليهما كان بمكة ثم نسخ بقوله تعالى: (لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [المجادلة:22].

يقف سيد قطب – رحمه الله – عند قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾؛ ليوضح أن الإنسان كائن اجتماعي يحتاج إلى بيئة بديلة؛ فإذا عزلته العقيدة عن والديه في الفكر، فإنها تدله على "المجتمع البديل" (الذين أنابوا) ليتكئ عليهم في مسيرته.

غرس المراقبة الإلهية المطلقة: *﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾

يعود السياق لخطاب لقمان. بعد أن رتب الحقوق (الله ثم الوالدين)، يغرس هنا محرك السلوك الداخلي وهو "الضمير والمراقبة الذاتية".

﴿إِنَّهَا﴾: الهاء هنا ضمير القصة والشأن، لتفخيم الأمر وتهويله، ﴿تَكُ﴾: مجزوم وعلامة جزمه السكون المحذوف على النون للتخفيف (أصلها تكن)، ﴿مِثْقَالَ﴾: خبر "تك" مقدم (أو اسمها على اختلاف في الإعراب)، وفي قراءة بالرفع.

إشراقة بلاغية: يتحدث ابن القيم (في الفوائد): عن بلاغة اختيار الألفاظ؛ "حبة الخردل" تضرب مثلاً لأصغر الأشياء وأخفها وزناً، و*"الصخرة"* تُمثل منتهى

---

(1) – أخرجه الترمذي (3189) واللفظ له، والطيالسي (205)، وأبو يعلى (782) بنحوه مطولً، وصححه الألباني.

الصلابة والغموض والإغلاق والتوارى عن الأعين، والتنقل بين (الصخرة، السماوات، الأرض) يحيط بالوجود كله (العمق، العلو، الاتساع).

أمّا البقاعي فيربط بين الخاتمة ﴿لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ ومضمون الآية؛ "اللطيف" الذي يصل علمه واستخراجه إلى أدق وأصغر الأشياء (كالخردلة في الصخرة)، و"الخبير" بالعالم بظواهر الأمور وبواطنها في الكون الفسيح.

الانتقال من الذات إلى المجتمع (المنهاج الحركي): *﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾

هذا هو البناء العبادي والاجتماعي. بعد استقرار العقيدة، وربطه ببر الوالدين، ثم المراقبة، يأتي العمل الفردي المتعدي للمجتمع؛ فلا يكفي أن تكون صالحاً في نفسك، بل يجب أن تكون مصلحاً لغيرك.

جاءت الأفعال كلها بصيغة الأمر ﴿أَقِمْ، وَأْمُرْ، وَانْهَ، وَاصْبِرْ﴾ وهي تفيد الوجوب الفوري والدوام والالتزام.

إشراقة بلاغية: يشير ابن تيمية – رحمه الله - إلى التلازم البديع والترتيب المنطقي في الآية؛ فالآمر بالمعروف والناهي عن المنكر لا بد أن يواجه أذى من الناس (لأن التغيير يصطدم بالشهوات والطبائع)، فلما أمره بالدعوة، أردفها مباشرة بالأمر بالصبر ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾؛ فالصبر عُدّة المصلحين، وهذا يتكرر في القرآن مثل سورة والعصر.

يتأمل سيد قطب – رحمه الله - تعبير ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾؛ أي الأمور التي يُعزم عليها ويُشتد فيها ولا يقدر عليها إلاّ أصحاب الهمم العالية والنفوس القوية التي تستمد طاقتها من إقامة الصلاة.

تهذيب السلوك الاجتماعي والنفسي: *﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾

الانتقال من ميدان الدعوة والعبادة إلى ميدان المعاملات اليومية وهيئات الجسد؛ المقصد هو تدمير "الأنا" والكبرياء النفسي الذي قد يتسلل للإنسان، خاصة من يرى نفسه مصلحاً أو متميزاً.

﴿تُصَعِّرْ﴾: مأخوذة من "الصَّعَر"، وهو داء يصيب الإبل يلتوي بسببه عنقها. واستعير هنا لمن يميل بوجهه عن الناس كبراً وتعالياً.

﴿مَرَحًا﴾: مصدر منصوب على أنه حال (أي تمشي مرحاً ومتبختراً)، أو مفعول لأجله.

إشراقة بلاغية: يبرز ابن عاشور – رحمه الله - بلاغة التنفير في لفظ ﴿تُصَعِّرْ﴾؛ فالقرآن يصور المتكبر بصورة الحيوان المريض المشوه لتقزز النفوس من هذا السلوك البشري. كما أطلق لفظ ﴿لِلنَّاسِ﴾ عاماً، فلم يقل "للمؤمنين"، فالمرء مطالب بالتواضع لعموم البشر.

أمّا محمد قطب – رحمه الله - فيحلل النفس البشرية من خلال الخاتمة: ﴿مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾؛ المختال هو المتكبر في هيئته وحركاته (الداخل الذي ينعكس على الجسد)، والفخور هو المتكبر بلسانه وأقواله. والآية نهت عن السلوكين معاً لتكامل الشخصية السوية.

السلوك الحركي والصوتي الأمثل: *﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾

ختام وصايا لقمان الحكيم - رحمه الله - بالاعتدال التام في المظهر والمخبر. المقصد هو ضبط الإيقاع الإنساني في الحركية (المشي) والتواصل (الصوت) ليكون السمت العام هو الهدوء والوقار والاتزان.

﴿وَاقْصِدْ﴾: من القصد وهو التوسط بين الإسراع المخل والتبطؤ المتكاسل، ﴿وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾: حرف الجر "من" هنا للتبعيض؛ أي لا تكتم صوتك بالكلية بل انقص منه واجعل الجهر على قدر الحاجة.

إشراقة بلاغية: يبين ابن القيم – رحمه الله - أنّ في التشبيه بـ ﴿لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ غاية التنفير والذم؛ حيث شبّه الصوت المرتفع العاري عن المصلحة بصوت الحمار، وجاء التعبير بـ "إنّ" و"اللام" المؤكدة لحصر النكارة والقبح في هذا السلوك الإنساني المشابه للحيوان.

أمّا سيد قطب – رحمه الله - فيختم (في ظلال القرآن) هذه الآيات بلفتة تربوية عميقة، يقول: "هكذا يأخذ الأدب القرآني طريق التدرج؛ يبدأ من أعماق الضمير (العقيدة والتوحيد)، ويمر بالعبادة (الصلاة)، وينطلق إلى الحركة الاجتماعية (الأمر والنهي والصبر)، وينتهي بأدب السلوك اليومي (المشية والنبرة والابتسامة)". إنه بناء شامل للإنسان لا يدع منه ثغرة واحدة بلا توجيه.

*﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (20) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (21) ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (22) وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (23) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ (24) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ

اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (25) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (26) وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (27) مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ(28))

هذه الآيات الكريمة في هذا الدرس قبل الأخير من أواخر سورة لقمان تمثل ملقى العظمة الإلهية، ومحاكمة العقل البشري أمام نعم الله الكونية والنفسية. سنسير معها آية آية عبر هذه القراءة المتكاملة، مستلهمين من مسالك أساطين التفسير والبلاغة (استبصار ابن تيمية وابن القيم لطبائع القلوب، وبراعة ابن عاشور اللغوية، ودقة البقاعي في النظم، والظلال الإيمانية عند سيد ومحمد قطب).

*(أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ)

تأتي هذه الآية بعد وصايا لقمان لابنه لتنقل الخطاب من الخاص إلى العام، ومن التربية الفردية إلى الخطاب الكوني. المقصد الأسمى هنا هو الامتنان الحافز على التوحيد، وإقامة الحجة بعجائب الآفاق والأنفس.

(أَلَمْ تَرَوْا): الاستفهام إنكاري تقريري. ودخلت "لم" الجازمة على الفعل المضارع لتقلب معناه إلى المضي، والمنفي إذا دخل عليه الإنكار صار تقريراً (أي: قد رأيتم وعلمتم). والرؤية هنا بصرية وعقلية معاً.

(سَخَّرَ لَكُم): التقديم الجاري والمجرور "لكم" يفيد العناية والتشريف بالدرجة الأولى، فالتسخير ليس مجرد إيجاد، بل تذليل لمنفعة الإنسان.

إشراقة بلاغية: الطباق: بين (السَّمَاوَاتِ) و(الْأَرْضِ)، وبين (ظَاهِرَةً) و(بَاطِنَةً). هذا التقابل الأفقي والعمودي يحيط بوعي الإنسان ويشعره بأنه مغمور بالنعمة من فوقه ومن تحته، ومن خارجه وداخله.

(أَسْبَغَ): يسميه البلاغيون: استعارة، والإسباغ في اللغة هو إفاضة الماء وتعميمه (يقال: أسبغ الوضوء). استعير هنا لشمول النعم وتتابعها كأنه غيث يغمر الجسد والروح، وهو ما يصفه ابن القيم – رحمه الله - بأنه "الحفظ الجسدي والهدى القلبي".

يرى ابن عاشور – رحمه الله - أنّ النّعم الظاهرة هي المحسوسات (الصحة، الرزق، جمال الطبيعة)، والباطنة هي المعقولات والروحانيات (العقل، الإيمان، السكينة، والوحي).

أمّا سيد قطب رحمه الله - فيعلق (في ظلال القرآن) أنّ هذا التسخير الكوني يجعل الإنسان "سيد هذا الكوكب"، ويربط بين حركة الكون وحركة قلبه، فكيف يجادل

بعد ذلك؟ ومن هنا جاء التعقيب بـ (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ) ليرسم مفارقة عجيبة بين كرم الخالق وجحود المخلوق.

*(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ)

السياق والمقصد: رصد لعلة الجدال العقيم الكامنة في النفس البشرية، وهي التقليد الأعمى المانع من التدبر.

(قِيلَ): بناء الفعل لما لم يسم فاعله (لم يذكر القائل) للإيجاز، ولتركيز الانتباه على "القول نفسه" (الوحي) لا على شخص القائل، فالأمر حق بذاته بغض النظر عمن يبلغ به.

(بَلْ): حرف إضراب إبطالي، أضربوا به عن الأمر بالاتباع اللائق بالعقلاء، إلى اتباع الموروث بلا وعي.

إشراقة بلاغية: الاستفهام الإنكاري والتهكمي: (أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ). الواو للحال، وهمزة الاستفهام مقدمة من تأخير. والمعنى: أيتّبعونهم في حال كان الداعي لهم هو الشيطان إلى النار؟

المقابلة الخفية: بين رحمة الله المسبغة في الآية السابقة، وبين دعوة الشيطان المهلكة في هذه الآية.

يرى البقاعي – رحمه الله - في (نظم الدرر) أنّ هذه الآية تكشف تنكيس العقل، حيث فضّلوا "القرابة الطينية" (الآباء) على "القرابة الروحية" (الوحي المتصل بالخالق).

أمّا محمد قطب – رحمه الله - فيحلل النفسية الإنسانية هنا فيشير إلى "صنم المحاكاة" والاستسلام لضغط البيئة والتقاليد، وهو ما يسميه المولى جل وتعالى هنا بدعوة الشيطان التي تلغي كرامة العقل البشري.

(وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)

بعد عرض نموذج المقلد الجاحد، تعرض الآية النموذج المقابل (الموحد المخلص)، ليتضح الفرق بين الهلاك والنجاة.

(يُسْلِمْ وَجْهَهُ): الوجه هو أشرف أعضاء الإنسان ومظهر توجهه وقصده. وإسلامه لله يعني الانقياد والتمكين التام. عدّي الفعل بـ "إلى" لتضمينه معنى الإلجاء والتفويض (التجأ بوجهه إلى الله).

كما قال الله تعالى عن خليليه إبراهيم عليه السلام: (إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ أَخْلِصْ لِي الْعِبَادَة، وَاخْضَعْ لِي بِالطَّاعَةِ (قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) [البقرة:131].

قوله سبحانه: (وَهُوَ مُحْسِنٌ): الجملة الحالية قيد ثقيل ومهم جداً؛ فالإسلام ليس استسلاماً عاجزاً بل هو عمل صالح وإتقان.

وفي حديث جبريل الطويل: قال: ما الإحسانُ؟ قال: أن تَعبُدَ اللهَ كَأنَّك تَراه، فإن لم تَكُنْ تَراه فإنَّه يَراك [1]

إشراقة بلاغية: قوله تعالى: (فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ}. يسميه البلاغيون: الاستعارة التمثيلية البديعة، حيث شبّه الإيمان والعمل الصالح بحبل متين متدَلٍّ من مكان شاهق مأمون، له مقبض (عروة) شديد الإحكام (وثقى). من تمسك به نجا من السقوط في هاوية الضلال وعذاب السعير المذكور في الآية السابقة.

قد فسرت العروة الوثقى بعدة تفسيرات، فقد فسرها بعض المفسرين بـ (لا إله إلا الله)، وقال آخرون هي الإيمان، وقال آخرون هي الإسلام، وقال آخرون هي القرآن، وكل هذه الأقوال لا تعارض بينها لأن من تمسك بلا إله إلا الله فقد تمسك بالإيمان والإسلام والقرآن، والمقصود أنه تمسك بالدين القويم الذي ثبتت قواعده ورسخت أركانه وكان المتمسك به على ثقة من أمره لكونه استمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها أي لا انقطاع لها.

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مرفوعاً: إنها ستكون فتنٌ، قلتُ : فما المخرجُ منها يا رسولَ اللهِ ؟ فقال : كتابُ اللهِ، فيه نبأُ ما قبلكم ، وخبرُ ما بعدكم ، وحُكمُ ما بينكم، هو الفصلُ ليس بالهزلِ، من تركه من جبَّارٍ قصمه اللهُ، ومن ابتغى الهدَى في غيرِه أضلَّه اللهُ، وهو حبلُ اللهِ المتينُ ، وهو الذِّكرُ الحكيمُ، وهو الصراطُ المستقيمُ، وهو الذي لا تزيغُ به الأهواءُ، ولا تختلفُ به الآراءُ، ولا تلتبس به الألسُنُ، ولا يَخلَقُ عن كثرةِ الرَّدِّ ، ولا تنقضي عجائبُه ، ولا يَشبعُ منه العلماءُ، من قال به صدَق، ومن حكم به عدَل، ومن عمِل به أُجِر، ومن دعا إليه هُدِيَ إلى صراط مستقيمٍ [2]

كما أنّ القصر بتقديم الجار والمجرور: (وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) يفيد الحصر، أي إلى الله وحده لا إلى غيره مرجع كل تدبير وعاقبة.

---

(1) – أخرجه البخاري (50) واللفظ له ومسلم (9).
(2) – أخرجه الترمذي (2906)، والدارمي (3374)، وابن أبي شيبة (30629) باختلاف يسير، وقال ابن تيمة في درء تعارض العقل والنقل (ج5/ص268): له طرق.

يؤكد ابن تيمية – رحمه الله - أنّ "إسلام الوجه" هو التوحيد والقصد، و"الإحسان" هو متابعة الشريعة. وهذان هما ركنا قبول العمل الصالح (الإخلاص والمتابعة).

أمّا ابن عاشور – رحمه الله - فيبرز بلاغة البنية الصرفية في قوله تعالى: "استمسك" (السين والتاء للطلب والمبالغة)، فهو ليس مجرد ماسك، بل باذل طاقته في التمسك والاعتصام.

*(وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور).

تسلية قلب النبي صلى الله عليه وسلم وقلب كل داعية، ومقصدها تجريد التوحيد وضبط المشاعر الإنسانية تجاه إعراض الخلق.

(فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ): لا ناهية، ويحزنك مجزوم بها. والنهي هنا يراد به النفي والتسلية، أي: لا تذهب نفسك عليهم حسرات فإنما كفرهم على أنفسهم، ثم قال سبحانه: (لَيْنَا مَرْجِعُهُمْ): تقديم خبر المبتدأ "إلينا" ليفيد الحصر والتهديد الشديد معاً.

إشراقة بلاغية: المجاز المرسل في قوله: (فَنُنَبِّئُهُم): التنبيء هنا ليس مجرد إخبار، بل هو كناية عن الحساب والمجازاة بعقاب ما عملوا، لأن الله عالم بأعمالهم أصلاً قبل أن يرجعوا، ولكنه يعرضها عليهم تبكيتاً وإلزاماً للحجة.

مؤكد الإحاطة: (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ). "ذات الصدور" أي الخفايا والخواطر والمشاعر التي تلزم الصدور وتصاحبها، فإذا كان خبيراً بما تنطوي عليه المضغ داخل الصدر، فكيف بأعمالهم الظاهرة؟

هنا يعلق ابن القيم – رحمه الله ويتكلم عن عظمة هذه التسلية لقلب الداعية؛ فالكافر لا يضر الله شيئاً ولا يعجز مخططات القدَر، وإنما مرجعه محتوم، فليطمئن قلبك ولتمضِ في طريقك.

أمّا سيد قطب – رحمه الله فيرى هنا تربية للداعية ألّا يربط مشاعره بمدى استجابة الناس، بل بمدى أدائه لواجب العبودية، فالنتائج والخواتيم بوعاء الغيب الإلهي.

*(نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ): تفسير لطبيعة الحياة الدنيا بالنسبة للجاحدين، ومقصدها بيان زيف المتاع العاجل وبشاعة المصير الآجل.

(قَلِيلًا): نعت لمصدر محذوف (متاعاً قليلاً) أو ظرف زمان محذوف (زمناً قليلاً)، والحياة الدنيا مهما طالت فهي قليلة فانية، وفي سورة الاحقاف سماها (بلاغ) وقد فسرها بعضهم بأنها مقدار بلغة من العيش أي قليلة جدا، بل لم يذكر الحياة الدنيا في سورة المؤمنون، إنما تجاوزها لما بعدها لقصرها:

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ، ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ) [المؤمنون:12-16].

(نَضْطَرُّهُمْ): الفعل من "الاضطرار" وهو الإلجاء والقهر بالسوق رغماً عنهم.

إشراقة بلاغية: عطف التراخي بـ (ثُمَّ): يمد الحبل الزمني ليرى السامع مشهد التراخي والدعة في الدنيا، ثم الفجاءة العنيفة بالاضطرار والجر إلى العذاب.

(عذاب غَلِيظٍ): يسميه البلاغيون: استعارة، والغلظة صفة للأجسام المحسوسة (كالجدار الغليظ والثوب الغليظ)، استعيرت هنا للعذاب لوصف شدته وثقله وتراكم أهواله بحيث لا يجدون منه منفذاً ولا فرجاً.

يركز البقاعي – رحمه الله - هنا على كلمة (نَضْطَرُّهُمْ)، ففي الدنيا كانوا يتحركون باختيارهم ويسخرون من الآيات، أما هناك فيساقون مقهورين بلا أدنى مشيئة.

أمّا محمد قطب – رحمه الله فيرى في هذا "التمتيع القليل" استدراجاً نفسياً كونياً، حيث يظن المادي أن نجاحه الدنيوي دليل على صحة منهجه، فتكشف الآية أن هذا المتاع ليس إلاّ محطة قصيرة تسبق الاضطرار القاهر.

*(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ).

كشف التناقض المعرفي والنفسي لدى المشركين والمجادلين، ومقصدها إلزامهم بوجوب توحيد الألوهية طالما أقروا بتوحيد الربوبية.

(وَلَئِن): الواو عاطفة، واللام موطئة للقسم، و"إن" شرطية. وجواب القسم المحذوف المقدر سد مسد جواب الشرط وهو جملة (يَقُولُنَّ).

{لَيَقُولُنَّ}: اللام حرف واقع في جواب قسم مقدر، (يقولن): فعل مضارع مرفوع بثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين هي الفاعل، والنون المشددة للتوكيد. هذا التركيب اللغوي المشحون بالمؤكدات يوضح أن اعترافهم بالخالق نابع من الفطرة ولا يمكنهم التملص منه.

إشراقة بلاغية: الفصل والوصل: (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ). أمر الله نبيه أن يحمده فوراً لأن الحجة قامت عليهم بألسنتهم، ثم جاء الإضراب بـ {بَلْ} ليبين أن هذا الإقرار لسان فطري لا يتبعه علم عقلي حقيقي يرتبون عليه سلوكهم وعبادتهم.

يستدل ابن تيمية – رحمه الله - بهذه الآية وأمثالها على أن توحيد الربوبية (الإقرار بالخالق) مغروز في الفطر، حتى عتاة المشركين يقرون به، وإنما الخصومة تقع في توحيد الإلهية (إفراد الله بالعبادة والتحاكم والولاء).

أمّا ابن عاشور – رحمه الله - فيشير إلى البلاغة النفسية في قوله (لَا يَعْلَمُونَ)، أي لا يعلمون ملازمة هذا الإقرار، فمن أقر بالخالق الواحد لزمه عقلاً ألاّ يعبد سواه، فلما عبدوا غيره سُلخوا من صفة "العلم".

*(لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ): تأسيس القاعدة الكونية الكبرى المستحقة للحمد، ومقصدها إعلان الغنى المطلق لله والملك التام له.

(لِلَّهِ ما...): تقديم شبه الجملة (لِلَّهِ) يفيد القصر والاختصاص (ملكاً وخلقاً وتدبيراً).

(هُوَ الْغَنِيُّ): ضمير الفصل {هُوَ} يفيد التأكيد والتخصيص، أي هو الغني حقاً وكمالاً، وكل ما سواه فقير إليه بالذات، ولهذا كان من أسمائه سبحانه (الصمد): اي المقصود في جميع الحوائج، فأهل العالم العلوي والسفلي مفتقرون إليه غاية الافتقار، يسالونه حوائجهم، ويرغبون إليه في مهماتهم: (يسأله من في السماوات والأرض، كل يوم هو في شأن) [الرحمن:29]

إشراقة بلاغية: اقتران الاسمين {الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}: جناس معنوي وتكامل صفاتي بديع. فالغني قد يكون بخيلاً فلا يُحمد، والفقير المحمود قد لا يملك ما يعطي به. أما الله جل جلاله فهو غني معطاء، واسع العطاء، محمود على غناه وعلى عطائه ومنعه، محمود لذاته وصفاته وأفعاله.

يتأمل ابن القيم – رحمه الله - هذا الاقتران في كتاباته ويوضح أنّ "الحمد" يركب مع "الغنى" ليفيد كمالاً فوق كمال. فهو الغني الذي يغمر خلقه بالنّعم، المستحق للحمد سواء آمن الخلق أم كفروا.

كما يربط سيد قطب – رحمه الله - هذه الآية بجهاد العبيد وإسلام وجوههم؛ فالله لا يتكثّر بعبادتهم ولا تنقصه طاعتهم، إنّما يعود نفع الاستمساك بالعروة الوثقى على العبد نفسه، فالله غني عن العالمين.

*(وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ).

ذروة البيان البلاغي في تصوير عظمة علم الله وجلال كلماته المترجمة عن مشيئته وتدبيره ومكنون علمه.

(وَلَوْ): حرف امتناع لامتناع (أو شرط لما كان سيقع لو وجد الشرط)، (مِن شَجَرَةٍ): "من" بيانية لاستغراق الجنس، وجاءت "شجرة" بالإفراد اللفظي لتدل على أنّ كل شجرة على حدة تصبح أقلاماً.

(وَالْبَحْرُ): بالرفع مبتدأ وجملة (مُدُّهُ) خبره (في قراءة الجمهور)، وهو تعبير بالاستئناف والحال لتهويل المشهد الكوني.

إشراقة بلاغية: المبالغة بالرسم التصويري الهائل: تحويل غابات الأرض وشجرها إلى "أقلام"، وبحارها وبحار المدد السبعة المضافة إليها إلى "حبر"، ليكتبوا كلمات الله (علومه، حكمه، مخلوقاته، أحكامه)، النتيجة البلاغية: تفنى الأقلام وتجف الأبحر الكونية الهائلة و(مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ).

الفصل الإيجازي الكاشف: (إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ). ختم بـ "العزيز" (الغالب الذي لا يعجزه شيء ولا يحيط به خلق) و"الحكيم" (الذي يضع الكلمات والمخلوقات في مواضعها بدقة تامة).

شجر الأرض كافّة، تتحول إلى أَقْلَام، يكتبون بها "كلمات الله"، النتيجة: تفنى الأقلام وتجف الأبحر

البحر المحيط معه 7 أبحر ، تتحول إلى مِداد (حبر)، ولا تنفد كلمات الله لعظمته المطلقة.

يستدل ابن تيمية – رحمه الله - بهذه الآية على أن كلمات الله غير مخلوقة، لأن المخلوق ينفد وينتهي، بينما كلمات الخالق صفة من صفاته لا نهاية لها ولا نفاد، ويتجلى فيها كماله المتجدد سبحانه.

أمّا ابن عاشور – رحمه الله - ينوه إلى ذكر "السبعة" كعدد يفيد الكثرة والمبالغة عند العرب في تصوير السعة والاستيعاب، وليس المقصود به الحصر الرياضي المحض، فالمدد الإلهي لا ينقطع.

*(مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ): الخاتمة المنطقية والتطبيق العملي لعلم الله وقدرته المطلقة المعروضة في الآية السابقة؛ والمقصد هو إبطال استبعاد البشر لمسألة البعث والنشور.

(مَّا... إِلَّا): أسلوب قصر وحصر بليغ. يرفع توهم الصعوبة والمشقة في إحياء ملايين الموتى ونشرهم.

(كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ): الكاف للتشبيه، وجر "نفس" بالإضافة أو بحرف الجر. المعنى: خلق البلايين وبعثهم هين على الله كخلق شخص واحد وبعثه، فلا يشغله شأن عن شأن، ولا يستغرق منه تدبيراً إضافياً.

إشراقة بلاغية: الإيجاز الإعجازي: اختزال الوجود البشري كله من لدن آدم إلى قيام الساعة في كلمتين: (خَلْقُكُمْ) و(بَعْثُكُمْ)، ومقابلتهما بـ (كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ)، هذا التكثيف الصياغي ينفض عن النفس البشرية أوهام العجز المادي البشري ويدخلها في فضاء القدرة المطلقة.

ثم ختم سبحانه الآية بـ (سَمِيعٌ بَصِيرٌ)، وفي ذلك تناسب دقيق؛ فهو سميع لأقوال مجادليهم، بصير بظاهر أحوالهم وبذات صدورهم، محيط بكلمات خلقه وبعثهم.

يشير البقاعي – رحمه الله - إلى روعة التناسب؛ فبعد أن أثبتت الآية السابقة عدم نفاد كلماته لعظمة علمه، أثبتت هذه الآية طلاقة قدرته في الخلق والبعث، فالإله الخالق العليم لا يستعصي عليه جمع الذرات ونفخ الأرواح مرة واحدة بكلمة "كن".

ويختم سيد قطب – رحمه الله- هذا الدرس بالوقوف عند هذه الهيمنة الإلهية، ليعود بالقلب البشري إلى نقطة البداية: هذا الإله العظيم، بكل نعمائه، وبكل طلاقة علم كلماته وقدرة خلقه، هو الذي يستحق وحده أن "يُسلم الإنسان إليه وجهه وهو محسن" ليمسك بالعروة الوثقى التي لا تنفصم أبداً.

*(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (29) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (30) أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (31) وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (32) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ۚ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (33) إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(34))

هذه الآيات الكريمة في هذا الدرس الأخير سورة لقمان تمثل ذروة عقدية وتوجيهية في السورة. يتداخل فيها جمال البيان، وعمق المحاججة العقليّة، واللمس الوجداني المشهود، لتصل في النهاية إلى حصر الغيب المطلق بالله وحده.

*(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

السياق والمقصد: يرى البقاعي – رحمه الله - في (نظم الدرر) أنّ هذه الآية تأتي لربط الإنسان بالكون المشهود بعد أن ذكرت الآيات السابقة سعة كلمات الله ونفاذ قدرته، والمقصد هنا هو نقل العقل من التنظير الذهني إلى المشاهدة البصرية اليومية كدليل على كمال التصرف والقدرة.

(أَلَمْ تَرَ): الاستفهام هنا تقريري (أصل التركيب: لم ترَ، ودخلت همزة الاستفهام لتفيد التقرير والتوكيد). والرؤية هنا بصرية عينية، تنقلب قلبيّة علمية.

(يُولِجُ): الفعل المضارع يفيد التجدد والاستمرار، والإيلاج لغةً هو إدخال الشيء في الشيء بلطف وخفاء، وهو أدق تعبير لغوي عن حركة الغسق والشفق، حيث يذوب أحد الزمانين في الآخر دون صدام أو فجوة مفاجئة.

إشراقة بلاغية وجدانية: الطباق: بين (الليل والنهار) و(الشمس والقمر)، المفهوم البلاغي للحركة الكونية: يركز سيد قطب – رحمه الله - هنا على إيقاظ الحس؛ فالإنسان لبلادة طول المألوف لا يرى الإعجاز في حركة الليل والنهار، لكن الآية تعيد صياغة المشهد الكوني كحركة حية يديرها مدبر حكيم.

(كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى): تنوين (كلّ) هو تنوين عوض عن مضاف (أي: كل منهما)، واستخدام "يجري" يسميه البلاغيون: استعارة مكنية تضفي الحيوية والسرعة المنتظمة على الأجرام الكونية الكبيرة. ويلمح ابن القيم – رحمه الله - هنا إلى إثبات حكمتين: حكمة الجريان (النظام الحالي)، وحكمة الأجل (النهاية المحتومة لفناء العالم).

*(ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)

السياق والمقصد: هذه الآية هي "النتيجة البرهانية" المترتبة على الآية السابقة. فكل التدبير الكوني الباهر هو وسيلة لإثبات غاية واحدة: تفرد الله سبحانه بالألوهية وبطلان ما سواه.

(ذَٰلِكَ): اسم إشارة للبعيد، واستخدامه هنا لتعظيم المشهد والبرهان السالف ذكره.

ضمير الفصل (هُوَ): في موضعين (هُوَ الْحَقُّ) و(هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ). نحويّاً يفيد الحصر والتوكيد، وبلاغيّاً يقطع الشركة؛ أي الله وحده لا غيره هو الحق المطلق الثابت.

تعريف الطرفين: (اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ) المبتدأ والخبر معرفتان، ومثله (هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)، وهذا قصر حقيقي يفيد إحاطة الموصوف بالصفة.

ملاحظة: في سورة لقمان هنا قال الله تعالى (ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)، بينما زاد ضمير فصل ثالث في سورة الحج، ذكر ضمير الفصل هناك ثلاث مرات (ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) [الحج:62].

يكمن الفرق البلاغي واللساني والسياقي بين الآيتين في توظيف ضمير الفصل (هو)، حيث تكرر في آية الحج ثلاث مرات لتوكيد الحصر والقصر وتثبيت القلوب في مواجهة صراع شديد، بينما ورد في آية لقمان مرتين فقط، لأن سورة لقمان أسبق نزولاً، لمّا يبلغ الباطل أوج شدته.

يُعرف ضمير الفصل (ويُسمى أيضاً ضمير العماد) في النحو العربي بأنه حرف أو ضمير لا محل له من الإعراب، يؤتى به بين المبتدأ والخبر (أو ما أصله مبتدأ وخبر) لفصل الكلام وتأكيد التخصيص.

في كلا الآيتين، يؤكد الضمير "هو" أن ثبوت الحق المطلق لله وحده، وبطلان ما سواه، واستحقاقه جل وعلا لصفات العلو والكبرياء.2

الفرق بين الآيتين: يؤكد البلاغيون أنّ إضافة ضمير فصل إضافي تزيد من قوة التوكيد والحصر. في آية الحج، أُكدت جملة (ما يدعون من دونه هو الباطل) بضمير الفصل "هو" لأن الحاجة للتوكيد هناك أقوى.

سياق الصراع والمقاصد: تتجلى عظمة القرآن الكريم في ارتباط الآية بالسياق المحيط بها: فسياق سورة لقمان: السورة مكية تُعنى بأسس العقيدة والتوحيد، وتتحدث عن الحكمة في قصة لقمان، فجاء السياق هنا هادئاً تأمليّاً يسوق أدلة القدرة الإلهية (إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، وتسخير الشمس والقمر). لذلك جاءت الآية لتقرير الحقيقة بأسلوب البرهان والاستدلال الهادئ.

أمّا سياق سورة الحج، حيث أوج وشدة المواجهة والصراع، فالسورة تمتزج فيها آيات [المدينة] وآيات [مكة]، وتتناسب آيتها مع سياق الصراع الحاد مع أهل الباطل؛ فالمشركون كانوا يملكون القوة والتمكين، ويُخرجون المؤمنين من ديارهم (كما في قوله: وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الجَحِيمِ). لذا اقتضى الحال مجيء التوكيد أقوى وأشد (هو الباطل)، ليُقرر بثقة مطلقة ويقين جازم أن باطلهم زائل مهما تجبروا، ولتطمئن قلوب المؤمنين.

إشراقة بلاغية: يفصل ابن تيمية – رحمه الله - في كتاباته في معنى "هو الحق" بأنه الثابت الواجب الوجود الذي لا يحول ولا يزول، بينما "الباطل" هو المعدوم الذات أو العديم النفع والقدرة.

(الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ): ختم الآية بهذين الاسمين مناسبة بلاغية فذة؛ فعلوه فوق كل معبود، وكبرياؤه يستصغر أمامها كل عظيم في الكون من شمس أو قمر.

*(أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

ينتقل السياق من الآيات الفلكية العلوية (الشمس، القمر، الليل، النهار) إلى الآيات الأرضية القريبة المشهودة (الفلك والبحر)، لتطويق الإنسان بآيات ربه من فوقه ومن تحته.

(بِنِعْمَتِ اللَّهِ): الباء هنا للملابسة أو السببية. والنعمة هنا تشمل القوانين الفيزيائية الكونية (كقوة طفو الماء، وتسخير الرياح) التي تسمح للحديد والخشب الثقيل بالبقاء فوق الماء.

(لِيُرِيَكُم): اللام تعليلية، تعلل جريان الفلك بمراد إلهي وهو إظهار الآيات للبشر.

صيغ المبالغة: (صَبَّارٍ شَكُورٍ) على وزن (فَعَّال وفَعُول)، ولم يقل "صابر شاكر"؛ لأن مواجهة البحر والابتلاءات تحتاج قوة صبر عظيمة، ومقابلة نعم الله المتجددة تحتاج فيضاً من الشكر.

إشراقة بلاغية وجدانية: يقف الأستاذ محمد قطب – رحمه الله - عند التربية بالآيات الكونية؛ الفلك التائه في لجة البحر يمثل ضعف الإنسان المعلق برحمة الله. المشهد البلاغي هنا مشهد حركة مائجة تظهر عجز البشرية وتجلي النعمة الإلهية في آن واحد.

*(وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ): تأتي هذه الآية ككاشف نفسيّ معجز للطبيعة الإنسانية عند المحك والأزمات، فبعد ذكر الفلك والجريان، يعرض الله مشهد الخطر العاصف لبيان التناقض النفسي للمشركين.

إشراقة بلاغية: (غَشِيَهُم): الغشيان هو التغطية والإحاطة الشاملة من كل جانب، مما يوقع الرعب.

(مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ): تشبيه مرسل مجمل. "الظُّلل" هي الجبال الصامتة أو السحاب الكثيف المظلم الذي يظلل ما تحته. التشبيه يجسد ضخامة الموج، وتراكمه، وسواده، وإحاطته بالفلك.

(مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ): حال منصوبة. في لحظة الفطرة العارية من الزيف، تذوب الأصنام، ولا يبقى في روع الإنسان إلاّ القوة الحقيقية المهيمنة.

(مُقْتَصِدٌ): اسم فاعل، وفي تفسيرها اتجاهان بلاغيان: إما مقتصد في إيمانه (أي لم يوفّ بالعهد كاملاً بل شابَهُ تردد)، أو مقتصد في كفره (أي متوسط لم يعد للشرك العنيف). وعبر بـ "منهم" للتبعيض لأن الأكثرية تعود لجحودها.

(خَتَّارٍ كَفُورٍ): الختّار هو الغدّار الذي ينقض العهد بأبشع صورة، وجاءت بصيغة المبالغة لتتناسب مع قبح الجرم بعد النجاة.

*(ا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ۚ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

بعد استعراض الآيات الكونية والنفسية، يأتي النداء العام لكل البشرية (يَا أَيُّهَا النَّاسُ) كالتفات خطابي مباشر، يهدف إلى استثمار الحالة النفسية المتهيجة بالخوف من مشهد البحر، لينقلها إلى الخوف الأكبر الأبدي: يوم القيامة.

(لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ): الجملة نعت لـ (يَوْمًا). وحذف العائد هنا تشبيه بليغ إيجازي (أي لا يجزي فيه). و"يجزي" بمعنى يقضي أو يغني.

المقابلة البلاغية مع التفريق: قال في الطرف الأول (لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ) بالتنكير للعموم الشامل، بينما قال في الطرف الثاني (وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا)، فزاد في الطرف الثاني الجملة الاسمية المؤكدة بضمير الفصل (هُوَ) وباسم الفاعل (جَازٍ) تنبيهاً على أن المولود - مهما بلغت برته بوالده في الدنيا - فإنه أعجز ما يكون عن فدائه هناك، وزاد كلمة (شَيْئًا) (نكرة في سياق النفي تفيد الغاية في القلة).

(الْغَرُورُ): بفتح الغين هو الشيطان والخدّاع عموماً، أما بضم الغين (الغرور) فهو المصدر (الخداع)، واستعمال الفتح هنا صيغة مبالغة للشخص المتصف بالخداع المحترف.

*(إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ).

السياق والمقصد الخاتم للسورة: هذه الآية هي مسك الختام لسورة لقمان، وتسمى "آية مفاتح الغيب الخمسة". مقصدها الأساسي هو ردّ علم الغيب المطلق لله وحده، وقطع أوهام الكهان، والمنجمين، والمدعين، وربط قلوب العباد بمالك الأقدار ومقادير الزمان والوجدان.

إشراقة بلاغية وأسلوبية في تقديم الخبر وتأخيره: (إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ): لم يقل "إن علم الساعة عند الله"، بل قدّم شبه الجملة {عِندَهُ} بعد اسم إنّ لإفادة القصر التام والحصر؛ أي عنده وحده لا عند أي ملك مقرب أو نبي مرسل.

تنوع التعبير بين الأفعال والأسماء: في الساعة والغيث والأرحام: استعمل صيغ العلم والإنزال المستمر والقدرة الإحاطية التامة.

في الكسب والموت: تحول الأسلوب إلى النفي البشري بـ (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ)، وجاءت كلمة "نفس" نكرة في سياق النفي لتفيد الشمول التام؛ فلا نبي، ولا حكيم، ولا طبيب، ولا فيلسوف يعلم كسب غد أو أرض الممات.

التفسير البلاغي لمفردات الغيب الخمسة: الغيب المطلق إشراقة بلاغية مقاصدية تفسيرية: (علم الساعة) تحديد نهاية الزمان الكلي، وحجبت لتظل النفوس على وجل واستعداد.

(وينزل الغيث): التعبير بالمضارع يدل على تجدد النعمة، والغيث هو المطر المنقذ من الشدة، وعلمه يشتمل على وقت نزوله، ومكانه، ومقداره بالنفع أو الضر.

(ويعلم ما في الأرحام)، {مَا} اسم موصول يفيد العموم الكلي؛ لا يقتصر على الذكورة والأنوثة فحسب، ولا يقتصر على أجنة البشر، (والذي قد يكشفه العلم البشري الحديث سياقياً)، بل يعلم شقاوته، وسعادته، ورزقه، وملامحه، وتقلبات قلبه ونهايته، والأجنة في البحر، وأجنة الطير، وعموم ما في الأرحام، فعلمه مطلق سبحانه.

(وما تدري نفس ماذا تكسب غدا)، نفي دراية المستقبل القريب (غداً)؛ فإذا كان الإنسان يعجز عن معرفة كسب يده ومصيره بعد ساعات، فكيف يدعي تدبير الكون؟

(وما تدري نفس بأي أرض تموت)، اختيار "الأرض" مكانياً أبلغ من "الزمان"؛ لأن حركة الإنسان واختياره بيده في التنقل، ومع ذلك يساق برجليه إلى الأرض التي كُتبت فيها وفاته، مسلوب الإرادة في نقطة النهاية.

الخاتمة الفذة: (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)؛ عليم بالظواهر، وخبير بالبواطن والسرائر، صفتان تؤكدان إحاطته بكل ما حجب عن العباد من هذه الغيوب الخمسة.

هكذا تلتقي بلاغة اللفظ مع جلال المعنى، لتصنع سياقاً تربوياً يأخذ بقلب العقل البشري من آيات الفضاء الشاسع، مروراً بأعماق البحر الهائج، ثم زلازل يوم القيامة النفسية، لينتهي به جاثياً مستسلماً لعظمة الخالق وعلمه المحيط بكل غيب.

*

سورة الم السجدة

تسمية السورة

(سورة السجدة): وهو الاسم الأشهر والأكثر تداولاً في المصاحف وكتب التفسير، وسميت بذلك لورود آية السجدة فيها ووصف المؤمنين بخشوعهم، وأحيانا يقال لها سورة (الم السجدة) لتميزيها عن سورة (حم السجدة).

وقد يطلق عليها سورة (سورة آلم تنزيل): لافتتاحها بالحروف المقطعة وكلمة "تنزيل." هذه أشهر أسمائها، والله أعلم.

والجمهور على أنها مكية، ويستثني بعضهم قول الله تعالى فيها (تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) [الم السجدة:16]، فيقولون نزلت هذه الآية في المدينة.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: عَن أنسٍ رضيَ اللَّهُ عنهُ إنَّ هذِهِ الآيةَ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ نزلت في انتظارِ الصَّلاةِ الَّتي تُدعَى العتَمةَ [1].

وورد في فضلها: عن أبي هريرة رضي الله عنه: كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرَأُ في الجُمُعةِ في صَلاةِ الفَجرِ {الم تَنزيلُ} السَّجدةَ، و(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ)[2]..

بسم الله الرحمن الرحيم

*(الم (1) تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (2) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۚ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (3) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (4) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (5) ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (6) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (8) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (9) وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (10) ۞ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ(11) وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (12) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (13) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ۖ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (14) إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ (15) تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (16) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(17))

هذه الآيات الافتتاحية من سورة السجدة تُمثل بنية بيانية وهندسية عجيبة، تأخذ بالنفس من آفاق الكون الفسيح، نزولاً إلى أطوار خلق الإنسان، ثم مآلاته بعد الموت، لتنتهي برسم لوحة إيمانية حية لليل العابدين وجزائهم الخفي.

---

1 - أخرجه الترمذي (3196)، والطبري في ((التفسير)) (20/ 180) كلاهما بلفظه، وأبو داود (1321) بنحوه.، وقال المنذري في الترغيب: إسناده صحيح أو حسن أو بينهما.

2 - أخرجه البخاري (891) واللفظ له، ومسلم(880)

صدق الوحي ومصدرية الكتاب: *﴿الم ۝ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾

البدء بالحروف المقطعة ﴿الم﴾ يعد إيقاظاً للمؤمنين وتحدياً للمكذبين؛ فالكتاب مؤلف من جنس هذه الحروف التي تنطقون بها، ومع هذا لا تستطيعون أن تأتوا بملثه. وجملة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ إما صفة للكتاب أو حال، ونفي الجنس بـ (لا) يرفع أدنى احتمال للشك.

إشراقة بلاغية: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ هنا منقطعة تقدر بـ (بل والهمزة) للإضراب الإنكاري الانتقالي لتبكيتهم، وقوله: (بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) الإيجاز والالتفات؛ فبعد أن أثبت أنه من ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بلفظ العموم والاستحقاق الشامل، التفت في الآية التالية بقوله ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ بالكاف التي تفيد الاختصاص والتشريف للنبي ﷺ وتثبيت قلبه أمام دعواهم الإفتراء.

المقاصد والسياق: السورة مكية، ومقصدها الأول هو "تثبيت حقيقة الوحي والبعث". تبدأ السورة بنفي الريب كلياً لتقطع الطريق على اللغط الدائر في نوادي مكة، ثم تنقل سبب النزول الغائي: النذارة لقوم يعيشون في جاهلية وانقطاع عن الرسالات (لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) لفتح باب الهداية.

شهود العظمة وهيمنة التدبير: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝ ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾

الاستواء على العرش يُؤخذ عند الصحابة – رضوان الله عليهم - والسلف الصالح: بأنه العلو والارتفاع والاستقرار فوق العرش بلا تكييف ولا تمثيل، مؤكدين إثبات الصفة كما وردت مع تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين.
وقوله ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ فعل مضارع يفيد الاستمرار والتجدد، فالخلق لم يُترك هملاً. أما العروج في يوم مقداره ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فهو إشارة إلى عظم المسافة والسرعة، وبُعد آفاق التدبير الإلهي عما يعهده البشر.

إشراقة بلاغية: صياغة القصر والنفى بزيادة الحرف (مِن) الاستغراقية في ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ﴾؛ لقطع أي أمل للمشركين في شفاعة الأنداد. وجملة ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ استفهام توبيخي يثير الفطرة الساكنة.

التناسب: يربط البقاعي – رحمه الله - بين تنزيل الكتاب وتدبير الأمر؛ فالتنزيل أمرٌ شرعي، وخلق السماوات والأرض وتدبيرها أمرٌ كوني، وكلاهما يرجع إلى رب

واحد، فلا ينفك نظام الوحي عن نظام الوجود. والختم بـ ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ جمعٌ بين المهابة والقدرة (عزة) واللطف والتربية (رحمة).

الهندسة الحيوية لأطوار الإنسان: *﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾

قراءة الجمهور ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ بفتح اللام (فعل ماضٍ) فتكون جملة خلقه صفة لـ (شيء) أو بدلاً منه. وكلمة ﴿سُلَالَةٍ﴾ على وزن "فُعالة" وهي الخلاصة المستلة برفق. ووصْف الماء بـ ﴿مَّهِينٍ﴾ أي ضعيف وحقير في نظر العين، لإبراز التباين بين البداية المتواضعة والنتيجة الباهرة.

إشراقة بلاغية: عطف الأطوار بـ ﴿ثُمَّ﴾ التي تفيد التراخي الرتبي والزمني، للانتقال من مادة الطين الميتة إلى طور السلالة، ثم إلى طور التسوية وبث الروح. وفي تعبير ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ تشريف تكريمي عظيم للإنسان بنسبة الروح إلى ذاته العلية إضافة ملك وتشريف كما وضح ابن القيم – رحمه الله -.

أسرار الترتيب: تكرر في القرآن تقديم ﴿السَّمْعَ﴾ على ﴿الْأَبْصَارَ﴾ و﴿الْأَفْئِدَةَ﴾؛ لأن السمع أداة تلقي الوحي والوعي بالأولى، ولأنه يعمل في الظلام والرحم قبل البصر. وجاء السمع مفرداً والأبصار والأفئدة جمعاً؛ لأن الحق واحد يُسمع ويُتبع، بينما المشاهد والخواطر تتعدد وتتنوع. وختم بـ ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ للتعريض بجحود الإنسان وتذكيره بمنشئه.

جدلية البعث وحتمية الموت: *﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ۝ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾

اللسان والسياق: ﴿ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ تعني غبنا وذبنا واختلطت أجزاؤنا بترابها حتى لم نعد نتميز. وجاء الرد الإلهي بإضراب إبطالي بـ ﴿بَلْ﴾ ليكشف العمق النفسي لإنكارهم؛ المشكلة ليست عقلية استعصائية في إعادة الخلق، بل هي هروب نفسي وجحود بلقاء الله والمسؤولية (﴿بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾).

إشراقة بلاغية: صيغة المبنى لما لم يسم فاعله المقدرة في (وكّل بكل)؛ ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ تعبير مخيف يصور الموت كعملية دقيقة مرسومة محددة الأهداف، حيث لكل إنسان ملك موكل به يراقبه وينتظر أجله. واستخدام ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بالبناء لما لم يسم فاعله كذلك يفيد القهر والاضطرار، فلا مفر ولا اختيار.

مشهد الانكسار المتأخر في ساحة العدل: *﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ۝ وَلَوْ

شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ۖ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

إشراقة بلاغية: حذف جواب ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ لتهويل المشهد وتفخيمه؛ أي: لو رأيتهم لرأيت أمراً فظيعاً لا تطيق العقول وصفه. والتعبير بالوصف اسماً ﴿نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ﴾ يدل على ثبوت الذل والمهانة ولزومها لهم.

اللسان والأسلوب: قدموا البصر على السمع هنا ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ لأن المعاينة لليوم الآخر سبقت كل شيء، فرأوا الأهوال أولاً ثم سمعوا نداء التقريع.

المقاصد العقائدية: قوله ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ دليل واضح لعلماء أهل السنة على أن مشيئة الله نافذة، وأنه لو شاء لهدى الخلق قسراً بإلغاء الاختيار، لكن حكمته اقتضت الابتلاء.

المشاكلة والمقابلة: ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾؛ الله لا يضل ولا ينسى، ولكن اللفظ جاء هنا على سبيل "المشاكلة البلاغية" والجزاء من جنس العمل، أي: تركناكم في العذاب كما تركتم العمل لهذا اليوم.

تجليات العبودية وجزاء الخفاء: *﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ۝ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

إشراقة بلاغية أسلوبية: أسلوب القصر بـ ﴿إِنَّمَا﴾ يحصر الإيمان الحقيقي الكامل في هؤلاء الخاشعين. واستعمال الفعل ﴿خَرُّوا﴾ يصور السرعة والتأثر المباشر، فالخرور سقوط من غير تمهل، هرباً وإجلالاً لله بمجرد التذكير، على العكس تماماً من "المجرمين ناكسي الرؤوس" ذلاً يوم القيامة؛ فاختار أولئك نكس الرؤوس يوم القيامة، واختار هؤلاء سجوداً في الدنيا، فوقاهم الله ذل النكس في الآخرة.

﴿تَتَجَافَىٰ﴾ فعل مطاوع، كأن المضاجع والفرش الوثيرة تدعوهم، لكن جنوبهم تنبو وتجافي عنها رغبة فيما عند الله. و﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ مفعول لأجله أو حال، وهما جناحا الطائر للمؤمن في سيره إلى الله.

إشراقة بلاغية: في آية ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم من قرة أعين﴾ لطيفة بلاغية وجزائية تنبه لها ابن القيم في حادي الأرواح:

"لما أخفوا أعمالهم بالليل في قيام الليل حيث لا يراهم إلا الله، جازاهم الله من جنس عملهم؛ فأخفى لهم من الجزاء ما لا تعلمه نفس، فكافأ الغيب بالغيب".

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه: قال اللهُ تَبارَك وتَعالى: أعدَدتُ لِعِبادي الصَّالِحينَ ما لا عَينٌ رَأت، ولا أُذُنٌ

سَمِعَت، ولا خَطَرَ على قَلبِ بَشَرٍ. قال أبو هُرَيرةَ: اقرَؤوا إن شِئتُم: {فلا تَعلَمُ نَفسٌ ما أُخفيَ لَهم مِن قُرَّةِ أعيُنٍ}]السجدة: 17[. قال أبو مُعاويةَ، عن الأعمَشِ، عن أبي صالِحٍ: قرَأ أبو هُريرةَ: (قُرَّاتِ أعيُنٍ) [1].

كما أنّ تنكير كلمة ﴿نَفْسٌ﴾ في سياق النفي يفيد الاستغراق الشمولي، فلا ملك مقرب ولا نبي مرسل يعلم كنه هذا النعيم، و﴿قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ كناية عن منتهى الاستقرار والنفع والسرور الذي تبرد به العين وتستقر.

خلاصة: تبدأ الآيات بـ القرآن المستور الموحى به (﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ﴾)، وتمر بـ الكون المنظور وتدبيره وخلق الإنسان فيه (﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ - ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ﴾)، وتتحدث عن المنكرين الجاحدين ومآلهم الشقي، لتعود وتنصف الفئة المؤمنة التي اهتدت بهذا الكتاب، فجعلت ليلها سجوداً وتجافياً عن المضاجع، فاستحقت الجزاء الخفي الأبدي.

*(أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ (18) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (19) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ(20) وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21)وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ۚ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (22) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ۖ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (23) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (24) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (25) أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (26) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (27) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (28) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (29) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ(30)

هذا الجزء هو الخاتمة الحاسمة لسورة السجدة (الآيات 18-30)، وفيه تتبلور مقاصد السورة المقررة في أولها؛ حيث تشتد الموازنات العقائدية، وتُساق العِبر التاريخية والكونية، لتنتهي المعركة البيانية بتهديد صارم وانتظار متبادل بين الحق والباطل.

1 - أخرجه البخاري (4779)، ومسلم(2824)

قانون عدم الاستواء والموازنة العادلة: *﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ﴾

الهمزة للاستفهام الإنكاري، والفاء عاطفة على مقدر يقتضيه السياق (أي: أبعد هذا البيان يعتقد أحد المماثلة؟)، وجاء النفي بصيغة الجمع ﴿لَّا يَسْتَوُونَ﴾ مع أن المبتدأ مفضل في اللفظ ﴿مَن كَانَ﴾ مراعاةً لمعنى "مَنْ" الاستغراقي؛ فالكلام ليس عن شخصين، بل عن جنسين ومنهجين في الحياة.

إشراقة بلاغية: مقابلة بديعية واضحة بين "الإيمان" و"الفسق". والفسق في لسان العرب هو الخروج (فَسَقَتِ الرُّطَبَةُ إذا خرجت عن قشرتها)، فالكأس الفاسق خرج عن قشرة الطاعة، والآية تنفي التساوي في القيمة، والمنزلة، والمآل.

المقاصد والسياق: هذه الآية بمثابة "القاعدة التقييمية" للوجود البشري. فبعد أن وصف الله أحوال المجرمين ناكسي الرؤوس، وأحوال المؤمنين أصحاب التهجد، جاء هذا الحكم الفاصل ليرد على المشركين الذين كانوا يزعمون أنهم إذا بعثوا سيكونون أفضل حالاً من الضعفاء المؤمنين.

تفصيل المآل ولطائف النزل للمؤمنين ومثوى الكافرين: *﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾

إشراقة بلاغية ونحوية: استخدام "أَمَّا" التفصيلية لتفصيل عدم الاستواء الإجمالي السابق.

في حق المؤمنين قال: ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا﴾؛ و"النُّزُل" في لسان العرب هو ما يُهَيَّأ للضيف أول قدومه من الكرامة والتحفة، فإذا كان هذا هو أول استقبالهم، فكيف بما ينتظرهم وراء ذلك؟!

وفي حق الفاسقين قال: ﴿فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾؛ ولم يقل "النار نُزلاً لهم" ترفعاً للفظ النزل عن العذاب، بل جعل النار مأوى ومستقراً كالسجن المحكم.

الحركة والبيان النفسي: قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ مشهد عنيف مفعم بالحركة واليأس؛ يتصاعد لهب النار فيدفعهم إلى الأعلى، حتى إذا شارفوا على الخروج وأملت نفوسهم الخلاص، دُحروا وأُعيدوا فيها. وزيادة على العذاب الجسدي، يأتيهم العذاب النفسي والتقريع بكلمة: ﴿ذُوقُوا﴾ يسميها البلاغيون استعارة تهكمية، فالذوق يكون للمستلذات، لكنه هنا ذوق لمرارة التكذيب.

جدلية التربية بالعذاب وقمة الظلم البشرى: *﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ۚ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾

الواو عاطفة، واللام موطئة للقسم، والنون للتوكيد الثقيلة في ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾؛ مما يدل على حتمية وقوع ابتلاء وعذاب دنيوي. و﴿دُونَ﴾ هنا بمعنى (قَبْلَ) أو (سوى).

قال أبي بن كعب رضي الله عنه والضحاك والحسن وإبراهيم -رحمهم الله -: ﴿الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ﴾ هو مصائب الدنيا، وأسقامها، وهو رواية اللوالبي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وبعضهم أضاف الفقر، والقحط، وهزيمة بدر، وقال عكرمة: الحدود، (دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ) أي: عذاب الآخرة، ومقصد هذا العذاب هو "الرحمة والتربية" بدليل التعليل: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ فالمصائب في جعلها الله أدوات إيقاظ للفطرة وتنبيه قبل فوات الأوان بالوصول لـ ﴿الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ (عذاب الآخرة).

إشراقة بلاغية: الاستفهام في ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ معناه النفي والإنكار الإبطالي؛ أي: لا أحد أشد ظلماً لنفسه وللحق ممن جاءته الموعظة الشافية بآيات ربه العظيم ﴿ثمّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾. واستخدام حرف التراخي ﴿ثُمَّ﴾ يدل على بشاعة الجرم؛ إذ بعد مهلة وتدبر وتكرار التذكير، يصر على الإعراض. ثم جاء الختم بصيغة الاسمية المؤكدة والجمع ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ تأكيداً للانتقام الإلهي الحتمي من كل مجرم.

نموذج السير التاريخي وشروط الإمامة في الدين: *﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ۖ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ۝ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ۝ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

نظريات التناسب: يربط البقاعي نزول التوراة بنزول القرآن المذكور أول السورة ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ﴾؛ فالوحي ممتد متصل. والهاء في ﴿لِّقَائِهِ﴾ اختلف فيها المفسرون على أقوال؛ أرجحها عند ابن عاشور وسيد قطب: أي لا تكن في شك من لقاء موسى للكتاب وتلقيه للوحي، فالأمر ليس بدعاً في التاريخ، بل أنت تلتقي معه في صفة النبوة واستلام الرسالة.

وقال ابن عباس وغيره: فلا تكن من في مرية من لقاء موسى ليلة المعراج، ولعل هذا يحدد نزول السورة، وأنها نزلت قبل ليلة الإسراء والمعراج.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: أَتَيتُ على موسى ليلةَ أُسرِيَ بي عندَ الكَثيبِ الأحمَرِ وهو قائمٌ يُصلِّي في قبرِه [1].

---

1 - أخرجه مسلم(2375) .

ثم رآه حين صلى بكل الأنبياء عليهم السلام، ثم رآه في السماء مراراً وطلب منه أن يراجع ربه في الصلاة، قال صلى الله عليه وسلم: فرجعتُ بذلكَ حتّى مررتُ على موسى ، فقال موسى : ماذا فرضَ ربكَ على أمّتكَ ؟ قلت : فرضَ عليهِم خمسينَ صلاةً . قال لى موسى : فراجعْ ربكَ ، إن أمّتكَ لا تُطيقُ ذلكَ ، فراجعتُ ربى ، فوضعَ شطرها ، فرجعتُ إلى موسى فأخبرتهَ ، فقال : راجعْ ربكَ فإن أمتكَ لا تطيقُ ذلكَ ، فراجعتُ ربى ، فقال : هُنّ خمسٌ ، وهُنّ خمسونَ لا يُبَدّلُ القوْلُ لَدَىّ ، فرجعتُ إلى موسى ، فقال : راجعْ ربكَ ، قلتُ : قد استحييتُ من رَبّى [1] .

قاعدة الهدى البلاغية : هذه الآية صاغ فيها ابن القيم أثمن قواعده التزكوية، حيث قال:

"بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين".

وقرأ الجمهور ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ بفتح اللام وتشديد الميم (أي حين صبروا وجزاء صبرهم). فالصبر يدفع الشهوات، واليقين يدفع الشبهات، وبامتزاجهما تكتمل شخصية القائد المصلح الذي ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ لا بأهوائهم.

إشراقة بلاغية: تقديم الجار والمجرور في ﴿بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ يفيد الاختصاص والقصر؛ أي لا يستمدون يقينهم إلاّ من آيات الله الثابتة

براهين العِبرة التاريخية والآية الكونية: *﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ۝ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾

فاعل ﴿يَهْدِ﴾ محل خلاف؛ فهو إما ضمير يعود على الله، أو الجملة المفسرة بعده ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ في محل رفع فاعل. و"الأرض الجُرُز" في اللغة هي الأرض اليابسة الغليظة التي لا نبات فيها، وجُرِزت أي قُطِع نباتها وأُكِل.

إشراقة بلاغية: المقابلة البلاغية البديعة: في الآية الأولى: ساق موعظة سماع أخبار الهالكين: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ كديار عاد وثمود في طريق تجارة قريش، فختمها بـ ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾؛ لأن أخبار القرون الماضية تُتلقى بالسمع والرواية التاريخية.

أمّا في الآية الثانية: فساق مشهداً مشهوداً متكرراً تراه العين مجسداً؛ سوق الماء للأرض الميتة فتهتز وتربو، فختمها بـ ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾؛ لأن إنبات الأرض مرئي يقع تحت حاسة البصر.

---

1 - أخرجه البخاري (342)، ومسلم (163) بلفظه تامًا، وأبو يعلى (2535) باختلاف يسير مختصرًا. من حديث ابن عباس وأبي حبة البدري رضي الله عنهما.

أسرار الترتيب اللفظي: قدم الأنعام على الأنفس ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾؛ لأن الزرع النابت تبتدئ برعيه الأنعام مباشرة (قصب الزرع وكلؤه)، ثم يتلو ذلك طعام البشر من ثمره وحبوبه، ولأن الأنعام هي قوام عيشهم فتقديمها ضرورة معيشية لهم.

قفلة السورة والانتظار المتبادل: *﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾

السياق والمقاصد: "الفتح" هنا يحمل معنى القضاء والفصل بينهم وبين النبي ﷺ، من الفتاحة وهي الحكومة والقضاء، أو هو يوم القيامة ويوم بدر، والمشركون يستعجلونه استهزاءً وتكذيباً، فكان الجواب حاسماً: إن استعجالكم أحمق؛ لأن هذا الفتح يوم يأتي سيكون فتح قضاء وإهلاك أو قيامة، وحينها يغلق باب التوبة ﴿لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾، أي لا يؤخرون ولا يُمهلون.

إشراقة بلاغية: الجسورة (المشاكلة والمقابلة): قوله تعالى: ﴿وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ هو من أبلغ صيغ الوعيد والتهديد المسكوت عن تفصيله. فيها "مشاكلة وتناظر"؛ أنت يا محمد تنتظر نصر الله وإنجاز وعده وصيانة دينه، وهم ينتظرون بقاءكم وتصفية دعوتكم وموتكم. والفرق بين الانتظارين كالفرق بين الثرى والثريا.

هكذا بدأت السورة بنفي الريب والشك عن تنزيل الكتاب المقرون بصفة الربوبية للعالمين، وطافت بالنفس في آفاق الخلق والنشأة والموت والبعث، وختمت بقطع الحوار مع المستهزئين المعرضين بكلمة واحدة قطعية: انتظر! فبين الافتتاح الوعظي والختام التحذيري، تخر النفوس خاشعة خاضعة لهذا الجلال الإلهي الباهر.

المراجع